ضرب المثل في سورة البقرة لأحوال المنافقين والكافرين

تأليف

د خالد بن عثمان بن علي السبت

أستاذ مشارك – جامعة الدمام

من ١٣٩٣ إلى ١٤٦٨

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:فهذه دراسة تتعلق بشرح الأمثال المتعلقة بأحوال الكافرين والمنافقين في سروة البقرة، وهي تبلغ ثلاثة أمثال.وترتكز هذه الدراسة على جانبين أساسيين:الأول: في بيان المعنى الكلي للمثل، باعتبار التركيب. والمراد بذلك: (المعنى الإجمالي للمثل).الثاني: بيان المعاني التفصيلية للمثل، باعتبار التفريق. والمراد بذلك: (بيان المراد بكل جزء من المثل، وما يقابله من المعنى الذي ضُرب له).

أهمية الموضوع

وتتجلى أهمية دراسة هذا النوع من الأمثال بما يلي:

١- عِظَم خطر مُتَعَلَّق هذه الأمثال (الكفر والنفاق)، وذلك لما يورثه من خسارة الدارين.

٢- التنفير من الكفر والنفاق، والعمل على تنقية الاعتقاد من شوائبها.

٣- بيان سوء حال من اتصف بذلك، وتصويره بصورة سيئة يأباها كل ذي عقل أو مروءة.

وقد ذكرت في دراسة سابقة المقدمات النظرية التي يحتاج إليها المطالع لهذا الباب من العلم.ولا بأس هنا أن أشير بإيجاز إلى معنى المثل في اللغة والاصطلاح.

خطة البحث : وهذا البحث يتكون من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة :

المقدمة إشارة لأهمية الموضوع وخطة البحث

المبحث الأول : المثل الأول . المبحث الثاني : المثل الثاني . المبحث الثالث : المثل الثالث .

وفي كل مبحث أبين معنى المثل مفرقا ومركبا وبلاغته ، مع بيان ما يستفاد منه .

والله أسأل أن يوفقنا ويرزقنا القبول .

المبحث الأول : الْمَثَل الأولُ

"ضرب المثل بحال المنافق"

"المثل الناري"

قوله تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧-١٨]

المطلب الأول : معنى المَثَل (الكُلِّي) باعتباره مُركباً:

لَمَّا ذَكَرَ الله صفةَ المنافقين في صَدْرِ سورة البقرة، وذلك في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة: ٨-١٥] بعد ذلك ضرب الله لهم مَثَلَين: الأول: وهو الْمَثَل الناري ، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة:١٧].و الثاني: وهو الْمَثَل المائي في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة:١٩]. وذلك – والله أعلم-" لِمَا في النار والماء مِن الإضاءة والإشراق والحياة؛ فإنَّ النار مادَّةُ النُور، والماءَ مادَّةُ الحياة، وقد جعل الله سبحانه الوحيَ الذي أنزله من السماء مُتَضمنا لحياة القلوب واستنارتِها، ولهذا سمَّاه: رُوحًا ونورا، وجعل قابِلِيه أحياءَ في النور، ومن لم يرفع به رأسا أمواتاً في الظُّلُمَات"[١].

والله تبارك وتعالى وصف الكتاب والوحي بأنهُ نور وضياء ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] . فالوحي نورٌ، ومادَّة الضياء ومادَّة النور هي النار ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ فحصلت الإضاءة من مادَّة النار. كما أنَّ الله تبارك وتعالى وصف الْهُدَىٰ والوحي بأنهُ حياة، وأنَّ من حصل له هذا الهدىٰ حصلت له الحياة؛ ولهذا يصف الله تبارك وتعالى الكافر بالميت، ومن حصلت له الهداية بالحي، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ

---

[١] ما بين الأقواس من كلام ابن القَيِّم في إعلام الموقعين (١/١١٦).

مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]فذكر الإحياءَ، وذكر النورَ الذي يحصل به الإبصارُ.

فالوحي نورٌ وضياءٌ يَتَعَرَّف به الإنسان على حقائق الأشياء، ويُميِّز بين الحق والباطل، ومَعدِن الشبهات ومَعدِن الحق، ويُميِّز به بين الأصيل والدخيل، ويُميِّز به بين الأشياء المزيفة الْمُبَهرَجة – وإن استهوت الكثيرين– و الهدىٰ الذي بَعَثَ اللهُ به رُسُلَه عليهم الصلاة والسلام. فالذين رزقهم الله عز وجل الهداية حصلت لهم الحياة الحقيقية؛ وذلك أنَّ الوحيَ روحٌ، والذي جاء به وهو جبريل ﷺ هو روح القُدُس، وبذلك تَحْصُلُ حياة الأرواح، وعلىٰ قدر ما يحصل لها من هذا الوحي والهدىٰ يكون فيها من الحياة، وعلىٰ قدر ما تُشرِق في النفس تلك الأنوار فإنَّهُ يحصل في الصدر من الانفساح والاتساع فتُشرق نفس الإنسان، وإذا أشرقت نفسُه أقبل علىٰ كل علم نافع وعمل صالح، فاستقامت أحواله، واشتغلت جوارحُه بطاعة المعبود –جلَّ جلالُه– وصار صالحاً في كل شأن من شؤونه، وعلىٰ قدر ما يحصل له من هذه الحياة وعلىٰ قدر ما يحصل له من هذا الضياء والنور يكون له من الكمال والسعادة واللذَّة والنَّعيم الذي يذوقه في الدنيا قبل الآخرة، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهُ الله "إنَّ في الدنيا جنَّةً من لم يدخلها لم يدخل جنَّةَ الآخرة"[١]، والجزاء من جنس العمل.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: " شَبَّه سبحانه وتعالىٰ أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارا لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النَّار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويَضرهم، وأَبصروا الطَّرِيق بعد أَن كانوا حَيَارىٰ تَائِهِين، فهم كقوم سَفْرٍ

---

[١] مدارج السالكين (١/٤٥٢).

ضَلُّوا عن الطَّرِيق فأوقدوا النَّار لِتُضِيء لهم الطَّرِيق؛ فلَمَّا أَضاءَت لهم فَأَبصروا وعرفوا طُفِئَت تلك النَّار وبَقوا في الظُّلُمَات لا يُبصِرُون، قَد سُدَّت عليهم أَبوَاب الْهُدَىٰ الثَّلَاث، فإِنَّ الْهُدَىٰ يدخل إِلىٰ العبد من ثلاثة أَبوَابٍ: ممَّا يسمعه بِأُذُنه، ويراه بعينه، وَيَعقِله بقلبه. وهؤلاءِ قد سُدَّت عليهِم أَبوَاب الهدىٰ فلا تسمع قلوبهم شَيئًا ولَا تُبصِرُه ولا تَعقِل ما ينفعها. وقيل: لَمَّا لم ينتفعوا بأَسماعهم وأَبصارهم وقُلُوبِهِم نُزِّلُوا منزِلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل "[١].

وقال رحمه الله تعالىٰ: " أخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلىٰ حظِّهم من الوحي، وأنهم بمنزلة من استوقد نارا لتُضيء له وينتفعَ بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاؤوا به، وانتفعوا به، وآمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لَمَّا لم يكن لصحبتهم مادةٌ من قلوبهم مِن نور الإسلام، طَفِئَ عنهم، وذهب اللهُ بنورهم"[٢].

فهذا حالهم في خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم حيث شاهدوا أعلام الإسلام ومنارهُ، وصحبوا رسول الله ﷺ، وسمعوا الوحي، وعرفوا دلائل صدقه، ومع ذلك لم يحصل لهم الإيمان والانتفاع وقد رأوا النور عياناً.

" فهذا مثلُ من لم يَصْحَبه نور الإيمان في الدنيا، بل خرج منهُ وفارقَه بعد أن استضاء به، وهو حال المنافق، عرف ثم أنكر، وأقر ثم جحد، فهو في ظلمات أصم أبكم أعمىٰ كما قال الله عز وجل في حق إخوانهم من الكفار: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾[الأنعام: ٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

[١] اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/٦٣).

[٢] إعلام الموقعين (١/١١٦-١١٧).

كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٧١]"[١]، وقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٣]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾[فصلت: ٤٤].

وخلاصة المعنى العام هو أن هؤلاء المنافقين حينما ادَّعَوا الإيمانَ حصل لهم شيء من الانتفاع بمنزلة ذلك الذي استوقد ناراً في مكانٍ مُظْلِمٍ فحصل له ضياءٌ، فأبصرَ ما حوله وانتفع بهذه النار مدة من الزمان، ثم انطفأت فرجع إلى ظُلْمَةٍ، تكون عادةً أشدَّ من الظُّلْمَة التي تكون قبل أن يُوقِد النار. فهؤلاء أظهروا الدخولَ في الإسلام فحصل لهم الانتفاعُ، حيث ناكحوا المسلمين، وحصل لهم من مال الفيء، و حقنوا دماءهم فلا يُقَاتَلُونَ باعتبار أنهم اظهروا الإسلام، و أحرزوا أموالهم، حصلت لهم هذه المنافع المؤقتة ففرحوا بها[٢]. " ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ إليه، لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تَلَبَّسُوا به واستناروا فهم لا يرجعون إليه. وقال تعالى في حق الكفار: ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٧١] لأنهم لم يعقلوا الإسلام، ولا دخلوا فيه، ولا استناروا به، ولا يزالون في ظلمات الكفر، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ"[٣]. " فهذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في

---

[١] ما بين الأقواس من كلام ابن القَيِّم في الوابل الصَيِّب، ص ٥٥.

[٢] وقد وَرَدَ هذا المعنى عن جماعة من السلف، منهم: ابن عباس، وقتادة والضَّحَّاك ومقاتل والسُّدِّي، انظر: جامع البيان (١/٣٣٨)، معالم التنزيل (١/٦٨).

[٣] ما بين الأقواس من كلام ابن القَيِّم في الوابل الصَّيِّب، ص ٥٥.

الإسلام ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع إليه؛ ولهذا قال: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ "[١].
وقال الشيخ عبدالرحمن ابن سعدي رحمه الله تعالى: " أي: مَثَلُهم الُمطَابق لما كانوا عليه ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ أي: كان في ظُلْمَة عظيمة، وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده مُعَدَّة، بل هي خارجة عنه، ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ ﴾ النار ﴿ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأَمِنَها، وانتفع بتلك النار، وقَرَّت بها عينه، وظنَّ أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك، إذ ذَهَبَ الله بنوره، فذَهَبَ عنه النُّور، وذهب معه السرور، وبقي في الظُّلمة العظيمة والنَّار الُمحرِقَة، فذَهَبَ ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق، فبَقِيَ في ظُلمات متعددة: ظُلمة الليل، وظُلمة السَّحاب، وظُلمة المطر، والظُّلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين، ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها وحُقِنَت بذلك دماؤهم، وسَلِمَت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم على ذلك إذ هَجَمَ عليهم الموت، فسَلَبَهم الانتفاع بذلك النُّور، وحَصَلَ لهم كل هَمٍّ وغَمٍّ وعذاب، وحَصَلَ لهم ظُلمة القبر، وظُلمة الكفر، وظُلمة النفاق، وظُلَم المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظُلمة النار، وبئس القرار"[٢]. وكأن الشيخ السعدي جَمَعَ بين الَمثَلينِ، والواقع أنهما مثلان متغايران، فلا حاجة لذكر هاتين الجزئيتين: ظُلمة المطر وظُلمة السحاب. فهذا معنىً مجملٌ لهذا الَمثَل على أقرب الأقوال في تفسيره، وإلا فهناك تفصيلاتٌ وخلافاتٌ بين أهل العلم في المراد ببعض ما ذكره الله عز وجل في هذه الآية.

---

[١] ما بين الأقواس من كلام ابن القَيِّم في إعلام الموقعين (١/١١٧).
[٢] تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٤.

المطلب الثاني : معنى الْمَثَل باعتباره مُفَرَّقًا، وتفسير أجزائه:

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ :السين والتاء للطَّلَب ﴿ ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فهذه النَّار مستعارة، وهكذا ذلك الإيمان الْمُدَّعَى كان مُسْتَعَاراً، ولم يكن نابعاً مِن داخل نفوسهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ " تأمَّل كيف جعَلَ ضَوءهَا خارجا عنه منفصلا، ولو اتصل ضوؤُها به ولَابَسَهُ لم يذهب، ولكنه كان ضوءَ مُجَاوَرَةٍ لا مُلَابَسَةٍ ومُخَالَطَةٍ، وكان الضوءُ عارضا والظُّلمةُ أصليةً، فرَجَعَ الضَّوءُ إلى مَعْدِنِه، وبقيت الظُّلمة في معدنها، فرَجَعَ كل منهما إلى أصله اللائق به، حُجةً من الله قائمةً، وحِكمة بالغةً تَعَرَّفَ بها إلى أولي الألباب من عباده"[١].

هل كان إيمانُ المَضروب لهم الْمَثَل حقيقيا أو مزعوماً

؟ اختلف المفسرون في ذلك على أقوال متعددة: القول الأول: أنهم كانوا يَعْتَزُّونَ بالإسلام، فتحصلُ لهم هذه المنافع، ثم ماتوا وسُلِبُوا ذلك العِزَّ كما سُلِبَ صاحبُ النار الذي ذَكَرَ الله صفته وضوءَه، وتركهم الله عز وجل ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ أي: عذابٍ. وأن هذا لم يكن بالإيمان الحقيقي، وأنها دعوى كاذبة حصل لهم بها انتفاع مؤقت، فهم أدعياء ولم يدخل الإيمان قلوبهم، ولم يَصْدُقُوا الله عز وجل قط في تلك الدعوى من أول يوم كما قال الله تبارك وتعالى يصف حالهم وما هم فيه من الاغترار العظيم: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [المجادلة:١٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ

---

[١] اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/٦٤).

ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣-١٤]. فهذه الآيات يحتج بها أصحاب هذا القول على أنَّ القول الذي قاله المنافقون كان مخادعةً، وأنَّ هذا هو حقيقة النفاق أصلاً: إظهارُ الإيمان وإبطانُ الكفر. وبهذا القول قال: ابن عباس ﷺ في رواية ابن أبي طلحة[١] عنه[٢]، و قتادة[٣]، والضحاك[٤]، وهو اختيار ابن جرير الطبري[٥]، و القرطبي[٦]، ومن المعاصرين: الشيخ عبد الرحمن ابن سعدي[٧].

و حُجَّةُ هؤلاء يمكن تلخيصها من كلام أبي جعفر ابن جرير رحمه الله بنقاط مُحَدَّدة[٨]:

١- أن الآيات في سياق الخبر عن المنافقين، فلم يكن لهؤلاء إيمان حقيقي، ولم يكن الحديث عن الْمُعْلِنين بالكفر.

---

[١] أبو الحسن علي بن أبي طلحة، واسم أبي طلحة: سالم بن مخارق الهاشمي، من التابعين، من شيوخه: مجاهد، ومن تلاميذه: الثَّوري، قَالَ أَحْمد بن حَنْبَل رحمه الله: كَانَ فِي مصر صحيفَة وَاحِدَة من التَّفْسِير قد رَوَاهَا عَليّ بن أبي طَلْحَة من رَحل من طالبي التَّفْسِير لتحصيلها لَا يُعَدُّ كثيرا، توفي سنة (١٤٣هـ). رحمه الله تعالى. انظر: تاريخ الإسلام (٩٣٢/٣)، طبقات الْمُفَسّرين للأدنه وي (ص ٢٤)،

[٢] انظر: جامع البيان (١/ ٣٣٧).

[٣] انظر: السابق (١/ ٣٣٩).

[٤] انظر: السابق (١/ ٣٣٩).

[٥] انظر: السابق (١/ ٣٣٣).

[٦] انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢١٣/١).

[٧] انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٤.

[٨] انظر: جامع البيان (٣٤١/١-٣٤٢).

٢- أنَّ هؤلاء لو كانوا قد آمنوا حقيقةً، ثم ارتدوا، لم يكن هناك خِدَاع ولا استهزاء عند أنفسهم، ولا نفاقٌ. و الله يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فنفى الإيمان عنهم، ثم قال: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ وهذا مرض النفاق، فهذا ظاهرٌ في أنَّ هؤلاء لم يؤمنوا أصلاً.

٣- وهو جوابٌ على إيراد، إذ قد يُقَال: يُحتمل أنَّهم آمنوا حقاً ولم يحصل لهم ردة صريحة و إنَّما حصل لهم نفاق. والجواب: ليس عندنا دليل أو برهان على أنَّهم كانوا مؤمنين حقيقة ثم نافقوا، وإنَّما هم منذُ البداية كذلك. و نظير هذا ما أخبر الله تعالى به عن منافقي اليهود: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

فهذا الإيمان الذي كان في وجه النهار -في أول النهار- لم يكن إيماناً حقيقياً، إنَّما المقصود به الزعزعة والتشكيك، فإذا دَخَلَ هؤلاء اليهود في الإسلام ظاهراً قال الناس: هؤلاء أهل علم وأهل كتاب وقد أقبلوا على الإسلام، فإذا حصلت منهم رِدَّةٌ فإن الناس ربَّما توهموا أنَّ هؤلاء قد رأوا فيه ما يستوجب رفضه والارتداد عنه.

القول الثاني: أنَّهم دخلوا في الإسلام حقيقةً، وعرفوا الحلال والحرام، والخير والشر، وحصل لهم هذا النور، ثمَّ بعد ذلك حصل لهم ارتدادٌ وكفرٌ، فانطفأ ذلك النور بكفرهم ونفاقهم فيه، فتَرَكَهم في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق، فصاروا لا يعرفون الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر.

وبهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في روايةٍ عنه[1]، وهو مروي عن ابن مسعود، وبعض الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم[2]، وقال به من التابعين: عبد الرحمن بن زيد[3]، واختاره الحافظ ابن كثير وقد رَدَّ علىٰ ابن جرير قوله السابق[4].

وحجتهم: بأنَّ اللهَ عز وجل قال في حق المنافقين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ [المنافقون:٣] وقال في قصة الاستهزاء في سورة براءة: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

والأقرب -والله تعالىٰ أعلم- في هذه الآيات التي احتج بها أصحاب هذا القول هو أن هذا الإيمان الُمُشار إليه ليس بإيمان حقيقي، إذ المراد بقوله تبارك وتعالىٰ في سورة براءة: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ المزعوم الذي أظهرتموه وأعلنتموه، وإن لم يكن حقيقياً، وهكذا قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ أي: أظهروا الإيمان ثم جاؤوا بما يُبْطِلُه.

فهذان قولان وبعدهما قولان دونهما في القوة.

القول الثالث: أنَّ إضاءة النار في الَمَثَل ليست متعلقة بالإيمان أصلاً، وإنما تُصَوِّر أمراً آخر من تصرفات المنافقين، وذلك إشارة إلىٰ: إقبالُهم إلىٰ المؤمنين والهدىٰ، وذهابُ النور إشارة إلىٰ: إقبالهم إلىٰ الكافرين والضلالة، والمنافق كما

---

[1] انظر: جامع البيان (١/ ٣٣٧).

[2] السابق.

[3] عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العُمَرِيُّ المدني، كان صَاحِبَ قرآن وتفسير، جَمَعَ تفسيراً فِي مُجَلَّد، وَكِتَاباً فِي النَّاسِخِ وَالمنسُوخِ، توفي سنة(١٨٢هـ) رحمه الله تعالىٰ. انظر: سير أعلام النبلاء(٣٤٩/٨)، انظر قوله في: جامع البيان (١/ ٣٣٧).

[4] انظر: تفسير القرآن العظيم (١٨٦/١).

وصفه النبي ﷺ «مَثَلُ الْمُنَافِقِ، كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً» [(١)]يعني: إذا التَفَتَت ورأت غنماً ذهبت إلى ناحيتها، وإذا التَفَتَت ورأت غنما في ناحيةٍ أخرى ذهبت نحوها، وبهذا القول قال مجاهد[(٢)].

القول الرابع: أنَّ المراد أنَّه كلما تكلَّمَ بكلمة الإخلاص أضاءَ له، فإذا وَقَعَ له شك فهذه هي الظُلْمَةُ، وبهذا قال الرَّبيع بن أنس[(٣)]. و الأقرب –والله تعالى أعلم– أنَّ اللهَ يَصِفُ بهذا الْمَثَل حال أهل النفاق الذين لم تستنر قلوبهم قط بالإيمان أصلاً، وإنما يحصل لهم انتفاع بهذه الدعوى الكاذبة في الدنيا كما ينتفع ذلك الْمُستَضِيء بتلك النار التي استوقدها ثم تنطفئ فيبقى حَرُّهَا وإحراقُهَا ويذهب عنه النور والضياء.

قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ : ١–تأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ "ولم يقل: بضوئهم، مع قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾؛ لأن الضَّوءَ هو زيادةٌ في النور، ولو قيل: ذَهَبَ الله بضوئهم لأَوْهَمَ الذهابَ بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النورُ أصلَ الضوء كان الذهاب به ذهابا بالشيء وزيادته.

وأيضا: فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٤).

(٢) انظر: جامع البيان (١/ ٣٤٠).

(٣) الرَّبِيْعُ بنُ أَنَسِ بنِ زِيَادٍ البَكْرِيُّ الخُرَاسَانِيُّ، توفي سنة (١٣٩هـ) رحمه الله تعالى. انظر: سير أعلام النبلاء (٦/١٦٩)، ونصُّ الرواية عنه عند ابن جرير رحمه الله تعالى أنه قَالَ: " ضَرَبَ مَثَلَ أَهْلِ النِّفَاقِ فَقَالَ: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} [البقرة: ١٧] قَالَ: إِنَّمَا ضَوْءُ النَّارِ وَنُورُهَا مَا أَوْقَدَتْهَا، فَإِذَا خَمَدَتْ ذَهَبَ نُورُهَا، كَذَلِكَ الْمُنَافِقُ كُلَّمَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ أَضَاءَ لَهُ، فَإِذَا شَكَّ وَقَعَ فِي الظُّلْمَةِ ". جامع البيان (١/ ٣٤٠).

وأيضا: فإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ سمَّىٰ كتابَه نُورا، ورسولَه ﷺ نُورا، ودينَه نُورا، وهُداه نُورا، ومن أسمائه: النّورُ، والصَّلاةُ نورٌ، فذهابُه -سبحانه- بنورهم ذهابٌ بهذا كُلّه"[١].

٢-تأمل قوله: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ " ولم يقل: بنارهم؛ لأن النَّارَ فيها الاحراق، فذهب بما فيها من الإضاءة والإشراق، وأبقىٰ عليهم ما فيها من الأذىٰ والإحراق، وكذلك حالُ المنافقين: ذَهَبَ نورُ إيمانهم بالنفاق، وبقي في قلوبهم حرارةُ الكفر والشكوك والشبهات تَغلي في قلوبهم، وقلوبُهم قد صَليت بِحَرّهَا وأذاها، وسَمُومها ووَهَجِهَا في الدنيا، فأصلاها الله تعالىٰ إياها يومَ القيامة ناراً مُوْقَدَةٌ تَطَّلِعُ علىٰ الأفئدة"[٢].

٣-تأمل قولهُ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ " ولم يقل: ذَهَبَ نورُهم، وفيه سرٌ بديعٌ، وهو انقطاعُ تلك المعيةِ الخاصَّةِ التي هي للمؤمنين من الله تعالىٰ، فإنَّ الله تعالىٰ مع المؤمنين، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ، فذهاب الله بذلك النور انقطاعٌ لمعيته الخاصة التي هي للمؤمنين، خَصَّ بها أولياءه فقطعها بينه وبين المنافقين، فلم يبق عندهُم بعد ذهاب نورِهم، ولا معهم، فليس لهم نصيبٌ من قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] ولا من: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] "[٣].

---

[١] اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/٦٥).

[٢] الوابل الصيب ، ص ٥٤.

[٣] ما بين الأقواس من كلام ابن القَيِّم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/٦٤).

٤-وفي قوله: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ " تَأَمَّلْ كيف وَحَّدَ النور، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ فجَمَعَها، فإنَّ الحقَ واحد، وهو صراط الله المستقيم، الذي لا صِرَاط يُوصِلُ إليه سواه، وهو عبادتُه -وحده لا شريك له- بما شَرَعَه على لسان رسولِه ﷺ لا بالأهواء والبدع وطُرقِ الخارجين عما بعث اللهُ به رسولَه من الهدى ودين الحق بخلاف طُرُقِ الباطل، فإنها متعددة مُتَشعِّبَة؛ ولهذا يُفرِدُ سبحانه وتعالى الحقَّ، ويَجمع الباطلَ، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فجمع سُبُلَ الباطل ووحَّدَ سبيلَه الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦] فإن تلك هي طُرُقُ مرضاته التي يجمعُها سبيلُه الواحد وصراطه المستقيم، فإنَّ طُرُقَ مرضاته كلَّها ترجعُ إلى صراطٍ واحد وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها.

وقد صَحَّ عن النبي ﷺ أنَّه خَطَّ خَطًّا مُستَقيما، وقال: " هَذَا سَبِيلُ اللهِ "، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: " هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ "، ثُمَّ قَرَأَ: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]"[1][2].

---

[1] أخرجه أحمد في المسند (٤١٤٢)، والدارمي (٢٠٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وحَسَّنه الألباني في تخريج مِشكَاة المصابيح (١٦٦).

[2] ما بين الأقواس من كلام ابن القَيِّم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/٦٦).

قوله تعالىٰ: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾:

١-" تَأَمَّلْ مطابقةَ هذا الْمَثَل لما تَقَدَّمَه من قوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾، كيف طَابَقَ هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حُصولَ الضلالة والرِضى بها، وبَذْلَ الهُدىٰ في مقابلتها وحصولَ الظُّلُمات التي هي الضلالةُ والرضى بها، بدلا عن النور الذي هو الهُدىٰ والنور، فبدَّلُوا الهُدىٰ والنُّور وتَعَوَّضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيا لها مِن تجارةٍ ما أخسَرها، وصفقةٍ ما أشد غَبْنَها"[١]. كما قيل[٢]:

بَدَّلْتُ بالجُمَّةِ رَأْساً أزْعَرَا　　　وبالثَّنَايَا الْوَاضِحَاتِ الدَّرْدَرَا

كما اشْتَرَىٰ الْمُسْلِمُ إذْ تَنصَّرَا

فهذا استبدالٌ واستعاضةٌ خاسرة مُحَقَقَةٌ من كل وجه -نسأل الله العافية- ومن يَقبَلُ بالظلام بدلاً من النور؟ ولكن إذا عَمِيَ القلبُ اشتغل العبدُ بما يضرُه.

٢-تأمل كيف قال: ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾: وذلك " أنَّ الْمُسْتَضيءَ بالنار مستضيءٌ بنورٍ مِن جِهةِ غَيرِهِ لا من قِبَلِ نفسه، فإذا ذهبتْ تلكَ النَّارُ بَقِيَ في ظُلْمَةٍ. وهكذا المنافق لَمَّا أقرَّ بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه وتصديق جازم كان ما معه من النور كالْمُسْتَعَار"[٣].

٣- من المعلوم أنَّ ضِياء النَّار من أجل أن يَدُومَ ويستمر فإنَّه يحتاجُ إلىٰ مادَّةٍ تَمُدُّه، كما أن البدنَ من أجل أن يقوم يحتاجُ إلىٰ غذاء، والسِّراجُ من أجل أن يَتَوهج ويَتَوقَّد يحتاجُ إلىٰ زيتٍ علىٰ الدَّوام، فكذلك نور الإيمان فإنَّه يحتاج إلىٰ مادَّةٍ من العلم النَّافعِ والعملِ الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا لم توجد مادَّةُ الإيمان فإنهُ

---

[١] السابق (٢/٦٥).

[٢] الأبيات منسوبة لأبي النَّجم الراجز، أوردها الثعلبي في الكشف والبيان (١/ ١٥٩)

[٣] ما بين الأقواس من كلام ابن القَيِّم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٧٩/٢).

ينطفئ كما تنطفئ النار إذا فقدت ما يمدها[١]؛ ولهذا فإنَّ الإيمان يزيد وينقص، كما يتلاشى أو يضعف أحياناً، فيكون لهذا السراج وميض خفيف يسير ضعيف يكاد ينطفئ، فإذا وُجِدَت مادَّتُه وقَوِيَت فإن ذلك يزيد هذا السراج تَوهُّجَاً وإضاءةً، وكذلك نحن بحاجةٍ إلى العلم الصحيح والعمل والموعظة وما إلى ذلك مما يُنَمِّي الإيمان، كالكلام عن الله عز وجل وأسمائه وصفاته وعظمته وما شابه ذلك مما يقوى به الإيمان.

٤- " الظُلمَة نوعان: ظُلْمَةٌ مستمرةٌ لم يَتَقَدَّمْهَا نور، وظُلمةٌ حادثةٌ بعد النور، وهي أشدُ الظلمتين وأشقُّهما على من كانت حَظَّه، وظُلمةُ المنافق ظُلمةٌ بعد إضاءةٍ، فمُثِّلَت حالُه بحال الْمُستوقِد للنَّار الذي حَصَلَ في الظُلمَة بعد الضَّوء، وأما الكافرُ فهو في الظُلُمَات لم يخرج منها قط"[٢].

٥-: هذا الْمَثَل يُشير إلى حالهم أيضاً في الآخرة، ومعلوم أنَّ الجزاءَ من جِنس العمل؛ ولهذا فإنهم في الآخرة يُعطون نُوراً ظاهراً كما كان نُورُهم في الدنيا ظاهراً، ثم يُطفَأُ ذلك النُّور أحوجَ ما يكونون إليه، إذ لا تُوجَدُ مادة تحمِلُه، فأهل الإيمان ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، وأما هؤلاء فما عندهم المادة التي يحصل منها الإضاءة والنور، فينطفئ نورهم ويبقون في الظُّلمة عند الجسر لا يستطيعون العبور[٣]. وتأمل الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عَبْدِ اللهِ، يُسْأَلُ عَنِ الْوُرُودِ، فَقَالَ: نَجِيءُ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كَذَا وَكَذَا، انْظُر أَيْ ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ؟ قَالَ: فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا، وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ، الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: مَن تَنْظُرُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ: أَنَا

---

[١] انظر: السابق (٢/٧٩).

[٢] السابق

[٣] انظر: السابق (٢/٨٠).

رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: حَتَّىٰ نَنْظُرَ إِلَيْكَ، فَيَتَجَلَّىٰ لَهُمْ يَضْحَكُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُعْطَىٰ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقًا، أَوْ مُؤْمِنًا نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ وَعَلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ وَحَسَكٌ، تَأْخُذُ مَن شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُطفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنجُو الْمُؤْمِنُونَ، فَتَنجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدرِ سَبعُونَ أَلفًا لَا يُحَاسَبُونَ"[١]. والشاهد قوله: " وَيُعْطَىٰ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقًا، أَوْ مُؤْمِنًا نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ " فالله يقول: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ فهناك مُطابقة بين حالهم في الدنيا وهذا الْمَثَل الذي ضُرِبَ لهم، وبين الحال التي يكونون عليها في الآخرة. قال الحافظ ابن القيم رحمه الله : " وقد فُسِّرَتِ تلك الإضاءةُ وذهابُ النُّور بأنها في الدنيا، وفُسِّرَتِ بالبرزخ، وفُسِّرَتِ بيوم القيامة، والصواب أنَّ ذلك شأنهم في الدُوُر الثَّلاثة، فإنَّهم لَمَّا كانوا كذلك في الدنيا جُوزُوا في البرزخ وفي القيامة بمِثلِ حالهم ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٦] ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] فإن المعاد يعود على العبد فيه ما كان حاصلا له في الدنيا؛ ولهذا يسمى يوم الجزاء: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢] ، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦] الآية. ومن كان مُستَوحِشًا مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار، فوحشته معه في البرزخ يوم المعاد أعظم وأشدُّ، ومن قَرَّت عينُه به في هذه الحياة الدنيا قَرَّت عينُه به يومَ القيامة وعند الموت ويوم البعث، فيموتُ العبد على ما عاش عليه، ويُبعَثُ على ما مات عليه، ويعود عليه عمله بعينه، فيُنَعَّمُ به ظاهرا وباطنا. فيُورِثُه من الفَرَح والسُّرُور واللذَّة والبهجة وقُرَّةِ العين والنعيم وقُوة القلب واستبشاره وحياته وانشراحه واغتباطه ما هو من أفضل النعيم وأجلِّه وأطيبِه وألذِّه، وهل النعيم إلا طِيبُ النفس وفَرَحُ القلب وسُرُورُه وانشراحُه

---

[١] أخرجه مسلم (١٩١).

واستبشارُه؟ هذا وينشأ له من أعماله ما تشتهيه نفسه وتلذُّهُ عينه من سائر الْمُشتَهَيَات التي تشتهيها الأنفس وتَلَذُّهَا الأعين، ويكون تَنَوعُ تلك المشتهيات وكمالُها وبلوغُها مرتبةَ الحُسن والموافقة بحسب كمال عمله ومتابعته فيه وإخلاصه وبلوغه مرتبة الإحسان فيه، وبحسب تنوعه، فمن تنوعت أعماله المرضية لله المحبوبة له في هذه الدار تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار وتَكَثَّرَت له بحسب تَكَثُّر أعماله هنا، وكان مَزِيْدُه مِن تَنَوُّعِهَا والابتهاج بها والالتذاذ بنيلها هناك على حسب مَزِيْدِه من الأعمال وتَنَوُّعِه فيها في هذه الدار.

وقد جَعَلَ الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والْمَسْخُوطَة أثرا وجزاء ولَذَّةً وألما يَخُصُّه لا يُشبه أثر الآخر وجزاءه. ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار، وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات فليست لذة من ضَرَبَ في كل مرضاة الله بسهم وأخَذَ منها بنصيب كلذَّةِ من أنمى سهمَه ونصيبَه في نوعٍ واحد منها، ولا ألَمُ من ضَرَبَ في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته كألَمِ من ضَرَبَ بسهم واحد في مَسَاخطه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى أنَّ كمال ما يُستَمتع به من الطيبات في الآخرة بحسب كمال ما قابله من الأعمال في الدنيا «فرأى قِنْواً من حَشَفٍ[١] مُعَلَّقًا في المسجد للصَّدَقَةِ فقال: (إنَّ صاحب هذا يَأْكُلُ الْحَشَفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٢]، فأخبر أن جزاءه يكون من جنس عمله، فيُجزى على تلك الصدقة بحَشَفٍ من جنسها"[٣].

---

[١] القِنو: العِذق من التمر. والحَشَفُ: التمر الفاسد. انظر: فتح الباري (١/ ١٠٥، ١٧٦)

[٢] أخرجه أبو داود برقم (١٦٠٨)، وابن ماجه برقم (١٨٢١)، وحَسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داوود برقم (١٤٢٦).

[٣] ما بين الأقواس من كلام ابن القيّم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/٨٢-٨٤).

مسألة: هل يُعَدُّ قوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ من بقية الْمَثَل ؟ أو أنَّ ذلك من الْمؤخَرِ الذي حقُّه التقديم؟

اختلف المفسرون في هذا على قولين:

الأول: " أنّ قوله جل ثناؤه:﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ من الْمُؤَخّر الذي معناه التقديم، وأنّ معنى الكلام: أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، صُمٌّ بكم عميٌ فهم لا يرجعون، مَثلهم كمثل الذي استوقدَ نارًا فلما أضاءتْ ما حوْله ذهبَ الله بنورهم وترَكهم في ظُلمات لا يبصرون، أو كمثل صَيِّب من السماء"[١]، وهذا قول ابن جرير رحمه الله تعالى[٢].

الثاني: وهو ظاهر كلام عامَّة أهل العلم: أنَّ هذا مما يتصل بالْمَثَل ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴾ وهم مع ذلك ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ ويُؤيد ذلك أن الأصل في الكلام الترتيب، فلا تُقْبَلُ دعوى التقديم والتأخير إذا أمكن حَمْلُ الآية على مَحْمَلٍ صحيح في التفسير [٣]. والمعنى يحتمل هذا وهذا، ولا شك أن هذا هو وصفهم، فهم صُمٌ عن الهُدى لا يسمعون به، ولا يصل إلى قلوبهم، وهم عُميٌ عنه لا يُبصرونه، وهم بكمٌ لا يتكلمون بالحق، وما ذكره ابن جرير تحتمله الآية –والله تعالى أعلم–. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: " وهذا خَبَرٌ من الله –جلَّ ثناؤه– عن المنافقين، أنهم باشترائهم الضلالة بالهُدى، لم يكونوا للهُدى والحق مهتدين، بل هم صُمٌ عنهما فلا

---

[١] ما بين الأقواس من كلام ابن جرير في جامع البيان (١/٣٤٥).

[٢] السابق.

[٣] انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين (٢/ ٤٥١).

يسمعونهما لغلبة خِذْلَان الله عليهم، بُكمٌ عن القِيلِ بهما، فلا ينطقون بهما، والبُكمُ: الخُرسُ، وهو جمع أبكم، عُمْيٌ عن أن يبصروهما فيعقلوهما؛ لأنَّ الله قد طبع على قلوبهم بنفاقهم فلا يهتدون"[١]. وقال في موضع آخر: " وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إخبار من الله –جلَّ ثناؤه– عن هؤلاء المنافقين الذين نَعَتَهُم الله باشترائِهم الضلالة بالهُدىٰ، وصَمَمِهِم عن سماع الخير والحق، وبَكَمِهِم عن القِيلِ بهما، وعَمَاهُم عن إبصارهما؛ أنَّهم لا يرجعون إلىٰ الإقلاع عن ضلالتهم، ولا يتوبون إلىٰ الإنابة من نفاقهم، فآيَسَ المؤمنين من أن يُبصِرَ هؤلاء رشدا، ويقولوا حقا، أو يسمعوا داعيا إلىٰ الهُدَىٰ، أو أن يذَّكَّروا فيتوبوا من ضلالتهم"[٢].

المبحث الثاني الْمَثَلُ الثَّاني " ضرب المثل بحال المنافقين بالمطر وما يصاحبه

قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٩-٢٠].

المطلب الأول : معنى الْمَثَل (الكُلِّي) باعتباره مُرَكَّباً:

عرفنا أنَّ الْمَثَل الأول المذكور في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ في المنافقين، وأنهُ يُصَوِّر حالهم في ذلك الإيمان الْمُدَّعَىٰ المزعوم، وما حصل لهم به من المنافع القريبة باستضاءة ذلك الْمُسْتَوقِد الْمُسْتَعِير لتلك النار

---

[١] جامع البيان (١/٣٤٧).

[٢] السابق (١/٣٤٨).

من غيره، ثم بعد ذلك لم يلبث أن انطفأت تلك النار وصار إلى ظلمات، أو انطفأ ذلك النور وبقيت الحرارة و الإحراق وما فيها من دخان. و هذا الْمَثَل يُصَوِّر حال المنافقين كذلك، وقد اختلفت أقوال أهل العلم في المراد بالْمَثَل على أقوال:
القول الأول: أنَّ هذا الْمَثَل ضُرِبَ للمنافقين يُصَوِّر حالهم مع القرآن. قال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا الْمَثَل : " وهو مَثَلُ القرآن الذي به حياة القلوب كالمطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، فأدرك المؤمنين ذلك منه، وعلموا ما يحصل به من الحياة التي لا تخطر لها، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق، وهو الوعيد والتهديد والعقوبات والْمَثُلات التي حَذَّرَ الله بها من خالف أمره، وأخبر أنه مُنَزِّلُهَا بمن كَذَّبَ رسول الله ﷺ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة، كجهاد الأعداء، والصبر على الأمر أو الأوامر الشاقَّةِ على النُّفُوس التي هي بخلاف إرادتها، فهي كالظلمات والرعد والبرق، ولكن مَن عَلِمَ مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق، بل يستأنس لذلك ويفرح به لما يرجو من الحياة والخِصْب.

وأما المنافق فإنه عَمِيَ قلبُه، لم يجاوز بصره الظلمة، ولم ير إلا برقاً يكاد يخطف البصر، ورعداً عظيماً وظلمة، فاستوحش من ذلك وخاف منه، فوضع أصابعه في أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد، وهَالَه ذلك البرق وشِدَّة لَمَعَانه وعِظَمَ نُورِه، فهو خائف أن يختطف معه بصره؛ لأن بصره أضعف من أن يثبت معه، فهو في ظُلْمَة يسمع أصوات الرعد القاصف، ويرى ذلك البرق الخاطف، فإن أضاء له ما بين يديه مشى في ضوئه، وإن فقد الضوء قام مُتَحَيِّراً لا يدري أين يذهب، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصَّيِّب الذي به حياة الأرض والنبات، وحياته هو في نفسه، بل لا يُدْرِك إلا رعداً وبرقاً وظُلْمَة ولا شعور له بما وراء ذلك، فالوحشة لازمة له، والرُّعْب والفزع لا يُفَارقه، وأما من أَنِسَ بالصَّيِّب وعلم أنه لا

بد فيه من رعد وبرق وظُلمَة بسبب الغيم، أستأنس بذلك ولم يستوحش منه، ولم يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصَّيِّب. فهذا مَثَلٌ مُطَابِق للصَّيِّبِ الذي نزل به جبريل ﷺمن عند رب العالمين تبارك وتعالى على قلب رسول الله ﷺ ليُحيي به القلوب والوجود أجمع، اقتضت حكمته أن يُقارنه من الغَيمِ والرَّعدِ والبرَق ما يُقَارِن الصَّيِّبَ من الماء، حِكمةً بالغةً وأسباباً مُنْتَظِمَة نظَّمها العزيز الحكيم. فكان حظُّ المنافق من ذلك الصَّيِّب سَحَابَه ورُعُودَه وبُرُوقَه فقط، لم يعلم ما وراءه فاستوحش بما آنَسَ المؤمنين، وارتاب بما اطمأن به العالِمون، وشَكَّ فيما يتقيه الْمُبصرون العارفون"[1]. و يتوسع ابن القيم رحمهُ الله في موضع آخر، فيَخرج من ذلك إلى أحوال أُنَاس ينتسبون إلى أهل الإيمان، وكيف أنهم لَمَّا ضلوا وانحرفوا عن الصراط المستقيم كان الاستدلال بنصوص الوحي يزعجهم. قال رحمه الله تعالى: " فلِضَعفِ بصائرهم وعقولهم اشتدَّت عليهم زواجرُ القرآن ووعيدُه وتهديدُه وأوامرُه ونواهيه وخطابه الذي يُشبه الصواعق، فحالهم كحال مَن أصابه مطرٌ فيه ظُلمةٌ ورعد وبرق، فلِضَعفِه وخَوَرِه جَعَلَ أصبعيه في أذنيه، وغَمَّضَ عينيه خشيةً من صاعقة تصيبه. وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيرا من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة إذا سمعوا شيئا من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين، كأنهم حُمُرٌ مستنفِرةٌ، فَرَّت من قَسورة. ويقول مخنثهم: سُدُّوا عنَّا هذا الباب، واقرؤوا شيئا غير هذا، وترى قلوبهم مُوَلِيةً وهم يجمحون لِثِقَلِ معرفة الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم.

كذلك المشركون على اختلاف شركهم، إذا جُرِّدَ لهم التوحيد وتُلِيَت عليهم النصوص المبطلة لشركهم اشمأزت قلوبهم، وثَقُلَت عليهم، ولو وجدوا السبيل إلى

---

[1] الوابل الصيِّب، ص ٥٦.

سَدِّ آذانهم لفَعَلُوا، ولذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله – ﷺ – إذا سمعوا نصوص الثناء على الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله – ﷺ – ثَقُلَ ذلك عليهم جدا، وأنكرته قلوبهم؛ وهذا كله شَبَهٌ ظاهر، ومَثَلٌ مُحَقَقٌ من إخوانهم من المنافقين في الْمَثَل الذي ضربه الله لهم بالماء؛ فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم"[١]. وقال: " ضَعُفَت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصَّيِّبِ مِن بُرُوقِ أَنوَارِهِ وضِيَاءِ معانيه، وعَجَزَت أسماعهم عن تلقِّي رُعُودِ وُعُودِهِ وأوامره ونواهيه، فَقَامُوا عند ذلك حَيَارَىٰ في أَودِيَةِ التِّيهِ، لا ينتفع بسمعه السَّامِعُ، ولا يهتدي ببصره البصير"[٢]. وقد ذكر هذا المعنىٰ طائفةٌ من أهل العلم منهم: البغوي[٣] والحافظ ابن القيم في عدد من كتبه –كما سبق– و الشيخ عبد الرحمن بن سعدي[٤] والطاهر بن عاشور[٥].

ويمكن القول بأنَّ مِثْل هذا التمثيل يُصَوِّر " حال المنافقين الْمُختَلِطَة بين جواذبَ ودوافعَ حين يُجاذِبُ نفوسَهم جاذبُ الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده، وجاذبُ الشر من أعراق النفوس والسخرية بالمسلمين، بحال صيّبٍ من السماء اختلطت فيه غُيوثٌ وأنوارٌ ومُزعجاتٌ وأكدار"[٦].

ومما يدخل في هذا المعنىٰ قول من قال: إنَّ المراد بالْمَثَل : ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ ﴾ هو الهُدَىٰ والعلم، فهذا الهُدَىٰ وهذا النُّور وهذا الإيمان هو حياة الأرواح وحياة

---

[١] إعلام الموقعين (١/١١٧).

[٢] مدارج السالكين (١/٣٥٨).

[٣] انظر: معالم التنزيل (١/ ٧٠).

[٤] انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٤.

[٥] انظر: التحرير والتنوير (١/ ٣١٧).

[٦] السابق (١/ ٣١٥).

النفوس ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فمن كان على الكفر فهو ميت، ومن كان في الضلالة فهو أعمى، ومن حصلت له الهداية فهو على نور من ربه﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ﴾ [البقرة:٢٥٧]. فنصيب أهل الإيمان هو الحياة الكاملة، والانتفاع بهذا الدين في العاجل والآجل، ونصيب هؤلاء من المنافقين هو كنصيب الذي لم يعرف حقيقة الغيث، ولم يُدْرِك منهُ إلا الرعد والبرق والظلمات، وهذا القولُ قريبٌ مما قبله.

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى: " فشبَّه نصيبَهم مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من النور والحياة بنصيب الْمُسْتَوقِد للنار التي طَفِئَت عنه أحوجَ ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائرا تائها لا يهتدي سبيلا ولا يعرف طريقا، وبنصيب أصحاب الصيَّب، وهو: المطرُ الذي يَصُوب أي: ينزل مِن عُلوٍّ إلى سُفْل. فشبَّه الهُدَى الذي هَدَى به عبادَه بالصيِّب، لأن القلوبَ تحيا به حياةَ الأرض بالمطر، ونصيبَ المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له من الصَّيِّب إلا ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ، ولا نصيبَ له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيِّب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعدَ والبرقَ مقصودٌ لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصَّيِّب. فالجاهلُ لفَرْط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيِّب من ظُلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد وتعطُّل مسافر عن سفره وصانع عن صَنْعَتِه، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيّب من الحياة والنفع العام. وهكذا شأنُ كلِّ قاصرِ النظر ضعيف العقل لا يُجاوز نظرُه الأمرَ المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب. وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحَّت بصيرته.

فإذا رأىٰ ضعيفُ البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاقِّ، والتعرض لإتلاف الْمُهجة، والجِراحات الشديدة، ومَلامَة اللُّوَام، ومُعاداة من يخاف مُعاداته لم يُقدِم عليه؛ لأنه لم يَشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تَسابَق الْمُتَسابقون، وفيها تنافس المتنافسون. وكذلك من عَزَمَ علىٰ سفر الحج إلىٰ البيت الحرام فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر، ومُفَارقة الأهل والوطن، ومُقَاساة الشدائد، وفِرَاق المألوفات، ولا يُجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته؛ فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه. وحالُ هؤلاء حالُ ضعيفِ البصيرة والإيمان الذي يرىٰ ما في القرآن من الوعد والوعيد والزواجر والنواهي والأوامر الشاقَّة علىٰ النفوس التي تَفطِمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفِطَامُ علىٰ الصبي أصعبُ شيءٍ وأشقُّه، والناسُ كلهم صبيان العقول إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألِبَّاء، وأدرك الحق علماً وعملاً ومعرفةً، فهذا الذي ينظر إلىٰ ما وراء الصيِّب، وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلمَ أنه حياة الوجود"[١]. وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ: " وقد ضَرَبَ الله في هذه الآية مَثَلاً لما جاء به محمد – ﷺ – من الهُدَىٰ، والعلم بالمطر ؛ لأن بالعلم والهُدَىٰ حياة الأرواح، كما أن بالمطر حياة الأجسام. وأشار إلىٰ وَجْه ضَرْب هذا الْمَثَل بقوله جل وعلا: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾[الأعراف: ٥٧]. وقد أوضح ﷺ هذا الْمَثَل الْمُشار إليه في الآيتين في حديث أبي موسىٰ الْمُتَّفَق عليه[٢] حيث قال ﷺ: « إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَىٰ، وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ،

---

[١] اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/٦٨-٦٩).

[٢] أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ »)[١]. وهذا القول مُلازمٌ للقول الذي قبله؛ فإنَّ الهُدَىٰ والنور جاء في القرآن، فالقولان متلازمان، ولا حاجة إلىٰ الجمع أو التوفيق أو الترجيح بينهما.

القول الثاني: أنَّ هذا وصفٌ لحال المنافقين وضلالهم وكفرهم كما جاء عن ابن عباس ﷺ قال: " أَي: هُم مِن ظُلُمَات ما هُم فِيه مِن الكفر والحَذَرِ من القَتْل، علىٰ الَّذِي هم عليه من الخِلَافِ والتَّخوفِ منكم، علىٰ مِثْلِ ما وَصَفَ من الَّذِي هو في ظُلْمَة الصَّيِّبِ، فَجَعَلَ أَصَابِعَهُ في أُذُنَيْه مِن الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الموت ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٠] أَي: لشدَّة ضوء الحَقّ ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ أَي: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم مِن قولهم به علىٰ اسْتِقَامَةٍ، فإذا ارْتَكَسوا منه إلىٰ الكفر قَامُوا مُتَحَيِّرِينَ "[٢]. وقال القُرطبي رحمه الله تعالىٰ: " وَشَبَّه الله تعالىٰ في هذه الآية أَحوَال الْمُنافِقِين بما في الصَّيِّب من الظُّلُمَاتِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَالصَّوَاعِقِ.

فَالظُّلُمَاتُ مَثَلٌ لِمَا يعتقدونه مِن الكفرِ، وَالرَّعدُ، وَالْبَرْقُ مَثَلٌ لِمَا يُخَوِّفُونَ به"[٣].

---

[١] أضواء البيان (١/ ١٣-١٤).

[٢] أخرجه ابن جرير في جامع البيان (١/٣٦٧).

[٣] الجامع لأحكام القرآن (١/٢١٩).

القول الثالث: أنَّ هذا مَثَلُ استضاءة المنافقين بضوء إقرارهم بالإسلام مع استسرارهم بالكفر.

قال الإمام ابن جرير رحمه الله تعالىٰ: " وتأويل ذلك: مَثَلُ استضاءة المنافقين بضوء إقرارهم بالإسلام مع استِسرَارِهم الكفر، مَثَلُ إِضَاءَةِ مُوقِدِ النَّارِ بِضَوء نَارِه علىٰ ما وَصَف –جَلَّ ثَنَاؤُه– من صِفَتِهِ، أو كَمَثَلِ مَطَرٍ مُظْلِمٍ وَدَقُهُ تَحَدَّرَ من السَّمَاءِ تَحمِلُه مُزنَةٌ ظَلمَاء في لَيلَةٍ مُظلِمَةٍ، وذلك هو الظُّلُمَاتُ الَّتي أَخبر اللَّه –جَلَّ ثَنَاؤُهُ– أَنَّها فيه"[١]. وهذه الأقاويلُ متقاربةٌ يمكن أن تجتمع، فهذا الْمَثَل يُصَوِّرُ حالَ المنافقين وما يحصل في نفوسهم من الانزعاج والقلق من أمورٍ شتىٰ، من قوارع القرآن ومن زواجره، ومن التَخَوُّفِ الدائم من الأخذ والعقوبة التي تحل بهم من أهل الإيمان أو من الله جل جلاله، وكذا أيضاً ما يُطَالَبُون به من التكاليف الشاقة التي تنفر عنها نفوسهم التي ما ارتاضت أصلاً بالإيمان.

المطلب الثاني : هل هذا الْمَثَل مُرَكَّبٌ أو مُفَرَّقٌ ؟

القول الأول: أن هذا الْمَثَل مُرَكَّبٌ ولا يصح تفريقه. القول الثاني: أن هذا الْمَثَل مُفَرَّقٌ، وهو قول أكثر أهل العلم. وهذا ظاهر في كلامهم علىٰ هذا الْمَثَل، وتنزيلهم كل جملة علىٰ معنىٰ يتصل بأحوال المنافقين.

قال في الكشاف: " لقائل أن يقول: شَبَّهَ دين الإسلام بالصيِّب؛ لأنَّ القلوب تحيا به حياةَ الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شُبَه الكفار بالظلمات، وما فيه مِن الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة مِن الأفزاعِ والبلايا والفِتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق، والمعنىٰ: أو كمثل ذوي صَيِّبٍ. والمراد كمثل

---

[١] جامع البيان (١/٣٥٤).

قوم أخذهم السماءُ على هذه الصفة فلَقُوا منها ما لَقُوا ، ثم قال: " والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يَتَخَطَّونَه أن التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات الْمُرَكَّبَة دون الْمُفَرَّقَة".

ثمَّ ذَكَرَ أنَّ هذا هو القول الفَحْلُ والمذهب الجزل، وذلك أنَّ العربَ تأخذ أشياء فُرادى معزولاً بعضها عن بعض لم يأخذ هذا بحُجزَة ذاك، فتشبهها بنظائرها. وقال: "وتُشَبِّهُ كيفيةً حاصلةً من مجموع أشياء قد تَضَامَّتْ وتَلَاصَقَتْ حتى عادت شيئا واحدا، بأخرى مثلها". إلى أن قال: " فأما أن يُرَاد تشبيه الأفراد بالأفراد غير مَنُوط بعضها ببعض ومُصَيَّرَةً شيئا واحدا، فلا. فكذلك لما وَصَفَ وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خَبَطُوا فيه من الحَيْرَة والدَّهْشَة شُبِّهَت حيرتهم وشدّة الأمر عليهم بما يُكَابِد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة الْمُظْلِمَة مع رَعْد وبَرْق وخَوْف من الصواعق"[1]. قال ابن عاشور رحمهُ الله تعالى: " ومن بديع هذا التَّمْثِيلِ أنَّه من ما احتوى عليه من مجموع الهيئة الْمُرَكَّبَةِ الْمُشَبَّهِ بها حال الْمُنَافِقِينَ حين مُنَازَعَةِ الجواذب لنفوسهم من جَوَاذِبِ الاهتداء، وترقبها ما يُفَاضُ على نفوسهم من قَبُولِ دعوة النَّبِيءِ وإرشاده، مع جَوَاذِبِ الإِصرَارِ على الكُفرِ، وذَبِّهِم عن أَنفُسِهِم أن يَعلَقَ بها ذلك الإرشاد حينما يَخلُونَ إلى شَيَاطِينِهِم، هو مع ذلك قَابِلٌ لِتفريقِ التَّشْبِيهِ في مُفْرَدَاتِهِ إلى تَشَابيه مُفْرَدَةٍ، بِأَن يُشَبَّهَ كُلُّ جُزْءٍ من مجموع الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ لجزء من مجموع هَيْئَةِ قَومٍ أَصَابَهُم صَيِّبٌ معه ظُلُمَاتٌ ورَعْدٌ وصَوَاعِقُ لا يُطِيقُونَ سماع قَصفِهَا، ويخشون الموت منها، وبَرقٌ شَدِيدٌ يَكَادُ يذهب بأبصارهم وهم في حَيرَةٍ بين السَّيْرِ وتركه"[2].

---

[1] الكشّاف (١/ ٧٩-٨٠).

[2] التحرير والتنوير (١/٣٢٠-٣٢١).

المطلب الثالث : معنى الْمَثَل باعتباره مُفَرَّقًا، وتفسير أجزائه: أقوال المفسرين في (أو) في قوله تعالىٰ: ﴿ أَوْكَصَيِّبٍ

﴾: القول الأول: أن (أو) بمعنىٰ (الواو)، كقوله تعالىٰ ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٢٤]يعني: لا تطع أثما ولا كفورا، بمعنىٰ (الواو)، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات:١٤٧[، قالوا: (أو) بمعنىٰ (الواو) ، يعني: ويزيدون عليها، وهذا هو قول ابن جرير رحمه الله تعالىٰ[١].

القول الثاني: أن (أو) للتخيير، يعني: أنت مُخَيَّرٌ إن شئتَ اضرب لهم الْمَثَل بالذي استوقد نارا، فهو مُنطبقٌ عليهم، وإن شئتَ اضرب لهم الْمَثَل بالصيِّب الذي نزل من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، فأنت مُخَيَّرٌ بين هذا وهذا، وهذا القول قال به جماعة، منهم: البغوي[٢].

القول الثالث: أن (أو) للتسوية، كقولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين، يعني: يستوي هذا وهذا، بمعنىٰ: سواء ضَرَبْتَ لهم مَثَلاً بهذا أو بهذا فهو مُطَابق لحالهم، وهذا الذي ذهب إليه القرطبي رحمه الله تعالىٰ[٣]. و هذه الأقوال متقاربةٌ، وكل هؤلاء يرون أن الْمَثَلين مضروبان في المنافقين، وأنه لم يُضرَب أحدهما في طائفة والثاني في طائفة أُخرىٰ. قال ابن جرير رحمه الله تعالىٰ: " فإن قال لنا قائل: أَخْبِرْنَا عن هذين الْمَثَلين، أَهُما مَثَلَان للمنافقين أو أحدهما؟ فإن يكونا مَثَلَين للمنافقين فكيف قيل: ﴿ أَوْكَصَيِّبٍ ﴾، و(أو) تأتي بمعنىٰ الشك في الكلام، ولم يقل: وكصيب، بالواو التي تُلحِق الْمَثَل الثاني بالْمَثَل الأول؟ أو يكون مَثَلُ القوم

---

[١] انظر: جامع البيان (٣٥٤/١)

[٢] انظر: معالم التنزيل (٦٩/١).

[٣] انظر: الجامع لأحكام القرآن (٤٦٤/١).

أحدَهما، فما وَجْه ذِكْر الآخر بـ(أو)، وقد عَلِمتَ أنَّ (أو) إذا كانت في الكلام فإنما تدخل فيه على وجه الشك من الْمُخْبِر فيما أخبر عنه، كقول القائل: لقيني أخوك أو أبوك، وإنما لَقِيَه أحدهما، ولكنه جَهِلَ عين الذي لَقِيَه منهما، مع علمه أن أحدهما قد لَقِيَه؛ وغيرُ جائز في الله -جلَّ ثناؤه- أن يُضَاف إليه الشك في شيء أو عُزُوبُ عِلْم شيء عنه فيما أخبر أو ترك الخبر عنه.

قيل له: إن الأمر في ذلك بخلاف الذي ذهبتَ إليه، و(أو) وإن كانت في بعض الكلام تأتي بمعنى الشك، فإنها قد تأتي دالَّةً على مِثْل ما تدل عليه (الواو) إما بِسَابِقٍ من الكلام قبلها، وإما بما يأتي بعدها، كقول توبةَ بن الْحُمَيِّر[(١)]:

وَقَدْ زَعَمَتْ لَيْلَى بِأَنِّي فَاجِرٌ ... لِنَفْسِي تُقَاهَا أَوْ عَلَيْهَا فُجُورُهَا[(٢)].

ومعلوم أَنَّ ذلك من تَوْبَةَ على غير وَجْهِ الشَّكِّ فِيمَا قَالَ، ولَكِن لَمَّا كانت (أو) في هذا الْمَوْضِع دَالَّةً على مِثْلِ الَّذِي كانت تَدُلُّ عَلَيْهِ (الواو) لو كانت مكانها، وَضَعَهَا مَوْضِعَهَا.

وكذلك قول جَرِيرٍ[(٣)]: جَاءَ الْخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا ... كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ[(٤)]

وكما قال الآخر:

فَلَوْ كَانَ الْبُكَاءُ يَرُدُّ شَيْئًا ... بَكَيْتُ عَلَى جُبَيْرٍ أَوْ عَنَاقِ

عَلَى الْمَرْأَيْنِ إِذْ مَضَيَا جَمِيعًا ... لِشَأْنِهِمَا بِحُزْنٍ وَاشْتِيَاقِ [(٥)].

---

(١) أبو حرب توبة بن الْحُمَيِّر بن سفيان بن كعب بن خَفَاجَة، شاعر فارس. انظر: فوات الوفيات (١/٢٥٩).

(٢) انظر: أمالي القالي (١/٨٨)، خزانة الأدب (١١/ ٦٨).

(٣) أَبُو حَزْرَةَ جَرِيْرُ بنُ عَطِيَّةَ بنِ الخَطَفَى التَّمِيْمِيُّ، البَصْرِيُّ، وَاسم الخطفى: حُذَيْفَة بن بدر. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٠).

(٤) ديوان جرير، ص ٢١١.

(٥) الأبيات لِمُتَمِّم بن نُوَيرة. انظر: تاج العروس (٢٦/ ١٦٤)،

فقد دل بقوله: عَلَى الْمَرْأَيْنِ إِذْ مَضَيَا جَمِيعًا، أن بكاءه الذي أراد أن يبكيه لم يُرِد أن يَقصد به أحدَهما دون الآخر، بل أراد أن يَبكيهما جميعا. فكذلك ذلك في قول الله جل ثناؤه: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ لَمَّا كان معلوما أنَّ (أو) دالةٌ في ذلك على مِثْلِ الذي كانت تدل عليه (الواو)، ولو كانت مكانها كان سَوَاءً نَطَقَ فِيهِ بـ(أَو) أو بـ(الْوَاوِ)"[١]. وقال في الكشَّاف: " فإن قلتَ: لِمَ عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك؟ قلتُ: (أو) في أصلها لِتَسَاوِي شيئين فصاعدا في الشك، ثم اتُسع فيها فاستُعيرت للتساوي في غير الشك؛ وذلك قولك: جَالِس الحسن أو ابن سيرين، تُريد أنهما سِيَّان في استصواب أن يُجَالَسَا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ ، أي: الآثم والكفور متساويان في وجوب عصيانهما، فكذلك قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ معناه: أن كيفية قصة المنافقين مُشبِهَةٌ لكيفيتي هاتين القصتين، وأن القصتين سواءٌ في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل، فبأيتهما مَثَّلْتَهَا فأنت مُصيب، وإن مَثَّلْتَهَا بهما جميعا فكذلك"[٢]. القول الرابع: أن (أو) يثبتُ بها أحدُ الأمرين، فهم لا يَخرجون عن الْمَثَلين، بل بعضهم يُشبه هذا، وبعضهم يُشبه هذا، وبهذا قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وردَّ على من قال بخلافه[٣]. و الأقوالُ الثلاثة الأولى بينها تقاربٌ، والذي يخالفها هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهُ الله ومن وافقه. وينبني على هذا القول الأخير مسألة، وهي:

---

[١] جامع البيان (١/٣٥٥-٣٥٦).

[٢] الكشَّاف (١/٨١).

[٣] انظر: مجموع الفتاوى (٧/٢٧٦-٢٧٧).

هل المَثَلَان (الناري والمائي) لطائفة واحدة من المنافقين أو لطائفتين؟

القول الأول: أن الْمَثَلين قد ضُرِبَا لطائفة واحدة؛ وهم المنافقون؛ وذلك لتمثيل حالهم بِمُرَاعَاة أوصاف أخرىٰ، ليكون كشفاً بعد كشف، وإيضاحاً بعد إيضاح. فالْمَثَل الأول ضُرِبَ لبيان حالهم حينما ادعو الإيمان، فانتفعوا بعض الانتفاع، ثم بعد ذلك انطفأ نورهم. والْمَثَل الثاني يُصَوِّرُ ما هم فيه من الحَيْرَة والتَّرَدُّد والقلق والخوف وما إلىٰ ذلك. وهذا القول ذهب إليه كبير الْمُفَسِّرِين أبو جعفر بن جرير رحمهُ الله[١]، وصاحب الكشَّاف[٢]، والرازي[٣]، وابن عاشور[٤]، وهو قول أكثر المفسرين[٥].

القول الثاني: أن الْمَثَلين لطائفتين؛ ولذا فهذا الْمَثَل لطائفة أخرىٰ مُغَايِرة للطائفة الأولىٰ، وإن كان كل منهما من المنافقين، وهذا الذي ذهب إليه الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمهُ الله[٦] ، واختاره الحافظ ابن كثير[٧] ، وممن ذهب إليهم من المعاصرين الشيخ محمد الصالح العثيمين رحمهُ الله[٨].

---

(١) انظر: السابق.

(٢) انظر: الكشَّاف (١/٧٨).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب (٢/ ٣١٦)، و الرازي هو: محمد بن عمر بن الحسين المعروف بابن خطيب الري، والفخر الرازي، المفسر ولد سنة ٥٤٣هـ ، وتوفي سنة(٦٠٦هـ)ـ رحمه الله تعالىٰ. انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠٠)، البداية والنهاية (١٣/ ٦٥).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٣١٤).

(٥) انظر: إرشاد العقل السليم (١/٥٢)، فتح القدير (١/٥٦)، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٤.

(٦) انظر: مجموع الفتاوىٰ (٧/٢٧٦-٢٧٧).

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/١٨٩).

(٨) انظر: تفسير سورة البقرة لابن عثيمين (١/٦٩).

والقائلون بهذا القول يرون أنَّ هذا الْمَثَل الثاني إنما هو لمن كانوا على النفاق ابتداءً ولا زالوا عليه، وأما الْمَثَل الأول فهو لقومٍ كان لهم إيمان ثم بعد ذلك صاروا إلى حال الظُّلُمَات. لكنهم اختلفوا في الأشدِّ من الحالين، والأسوأ من الفريقين على قولين: القول الأول: أنَّ الطائفة الأولى أشدُّ: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهُ الله تعالى: " وأمَّا الذين لم يزالوا منافقين، فضُرِبَ لهم الْمَثَل الآخر، وهو قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ ، وهذا أصح القولين. فإن الْمُفَسِّرين اختلفوا: هل الْمَثَلان مضروبان لهم كلهم، أو هذا الْمَثَل لبعضهم؟ على قولين، و الثاني هو الصواب؛ لأنه قال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ ، وإنما يثبت بها أحد الأمرين؛ فدلَّ ذلك على أنهم مَثَلُهُم هذا وهذا؛ فإنهم لا يخرجون عن الْمَثَلين، بل بعضهم يُشبِه هذا، وبعضهم يُشبِه هذا، ولو كانوا كلهم يُشبِهُون الْمَثَلين لم يذكر (أو) بل يذكر الواو العاطفة. وقول من قال: إن (أو) هاهنا للتخيير – كقولهم: جَالِس الحسن أو ابن سيرين – ليس بشيء؛ لأن التخيير يكون في الأمر والطلب، لا يكون في الخبر.

وكذلك قول من قال: (أو) بمعنى (الواو)، أو لتشكيك المخَاطَبِين، أو الإبهام عليهم؛ ليس بشيء، فإنَّ اللهَ يريد بالأمثال البيانَ والتفهيم، لا يريد التشكيك والإبهام، والمقصود تفهيم المؤمنين حالهم. ويدلُّ على ذلك أنه قال في " الْمَثَل الأول ": ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ وقال في " الثاني ": ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، فبَيَّن في " الْمَثَل الثاني " أنهم يسمعون ويُبصِرون ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ ﴾ وفي " الأول " كانوا يُبصِرُون ثم صاروا ﴿ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾. وفي " الثاني " ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم ﴾ البرق ﴿ مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ

﴾ .فلهم حالان: حال ضياء، وحال ظلام، والأولون بَقُوا في الظُّلمَة، فالأول حال من كان في ضوء فصار في ظُلمَة، والثاني حال من لم يستقر لا في ضَوء ولا في ظُلمَة، بل تختلف عليه الأحوال التي تُوجِب مقامه واسترابته"[١]. وعلى هذا تكون الطائفة الأولى أشدُّ؛ لأنهم: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ ﴾، والثانية لهم نوع سمع و إبصار ﴿ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ ﴾ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ ﴾ . وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: " فإذا تقرر هذا صار الناس أقساما: مؤمنون خُلَّصٌ، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خُلَّصٌ، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون، وهم قسمان: خُلَّصٌ، وهم المضروب لهم الْمَثَل الناري، ومنافقون يترددون، تارة يظهر لهم لَمَعٌ من الإيمان، وتارة يخبو، وهم أصحاب الْمَثَل المائي، وهم أخف حالا من الذين قبلهم.

وهذا المقام يُشبه من بعض الوجوه ما ذُكِرَ في سورة النور من ضَرْبِ مَثَلِ المؤمن، وما جَعَلَ الله في قلبه من الهدى والنور بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دُرِّيٌّ، وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كَدَرٍ ولا تخليط، كما سيأتي تقريره في موضعه إن شاء الله. ثم ضَرَبَ مَثَلَ العُبَّاد مِن الكفار، الذين يعتقدون أنهم على شيء، وليسوا على شيء، وهم أصحاب الجهل الْمُرَكَّب، في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ الآية [النور: ٣٩] . ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلَ الكُفَّار الجُهَّالِ الجهلَ البسيطَ، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ

[١] مجموع الفتاوى (٧/٢٧٦-٢٧٧).

بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

فقَسَّمَ الكفارَ هاهنا إلى قسمين: داعيةٍ ومُقَلِّدٍ، كما ذكرهما في أول سورة الحج: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ [الحج: ٣]. وقال بعده: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ [الحج: ٨]. وقد قسَّم الله المؤمنين في أول الواقعة وآخرها، وفي سورة الإنسان، إلى قسمين: سابقون وهم المقرَّبُون، وأصحابُ يمينٍ، وهم الأبرار. فتَلَخَّصَ من مجموع هذه الآيات الكريمات: أنَّ المؤمنين صنفان: مُقَرَّبون وأبرار، وأنَّ الكافرين صنفان: دعاة ومُقَلِّدون، وأنَّ المنافقين -أيضا- صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شُعبة من نفاق، كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: "ثلاث مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: من إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، و إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ"[1]. استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شُعبة من إيمانٍ، وشُعبة من نفاق. إما عَمَلي لهذا الحديث، أو اعتقادي، كما دلَّت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء"[2].

القول الثاني: أنَّ الطائفة الثانية أشدُّ: قال صاحب الكشاف: " فان قلتَ: أيُّ التمثيلين أبلغُ؟ قلتُ: الثاني؛ لأنه أدلُّ على فَرْط الحَيْرَة وشِدّةِ الأمر وفظاعتِه؛ ولذلك أُخِّرَ، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ"[3]. وإلى هذا

---

[1] أخرجه البخاري برقم (٣٤)، ومسلم برقم (٥٨) بلفظ: " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ.." بزيادة: " وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ" وفي بعض الروايات: " وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ".

[2] تفسير القرآن العظيم (١/١٩٢-١٩٣).

[3] الكشّاف (١/ ٨١).

ذهب الشيخ محمد الصالح العثيمين رحمهُ الله؛ لأنَّ الطائفة الثانية لم يحصل لها إيمان أصلاً[١]. والأقرب أن الْمَثَلين جميعاً للمنافقين، فهم فيما يتصل ببعض أحوالهم ينطبق عليهم الْمَثَل الأول، وفي توصيف الأحوال الأخرى للمنافقين من بعض الوجوه ينطبق عليهم الْمَثَل الثاني، والعلم عند الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى:﴿كَصَيِّبٍ﴾: قال كثيرٌ من أهل العلم: إنهُ على تقدير، وفي هذا التقدير أقوال:

القول الأول: أنَّ التقدير: كصاحب صَيِّب. فجعلهُ من قبيل الْمُفرَد قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾أي:الإنسان الذي استوقد ناراً ثم انطفأت﴿كَصَيِّبٍ﴾أي:أو كصاحب صَيِّب، وهذا قول بعض أهل العلم كالشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى[٢].

القول الثاني: أنَّ التقدير: كمثل ذوي صَيِّب. فيجعلون الْمُقَدَّرَ من قَبِيل الجَمْع، وهذا قول الرازي[٣] وابن عادل[٤].

القول الثالث: أنَّ التقدير: كفريق ذي صَيِّب. يعني: كقوم ذي صَيِّب، ودلَّ على تقدير قوم قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ﴾، وهذا قول ابن عاشور[٥].

القول الرابع: أنَّ التقدير: أصحاب صَيِّب. وهذا قول البغوي[٦]، والحافظ ابن القيم[٧].

---

[١] انظر: تفسير سورة البقرة لابن عثيمين (١/٦٩).

[٢] انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٤.

[٣] انظر: مفاتيح الغيب (٢/٣١٦).

[٤] انظر: اللباب (١/٣٨٦).

[٥] انظر: التحرير والتنوير (١/٣١٦).

[٦] انظر: معالم التنزيل (١/٦٩).

[٧] انظر: أعلام الموقعين (١/١١٧).

والصَيِّب هو: المطر الذي يَصُوبُ، أي: ينزل بكثرة، وهذا قول جماعة من أهل العلم، كصاحب الكشاف[١]، والحافظ ابن القيم[٢]، و الشيخ عبد الرحمن بن سعدي[٣].

سبب تسمية الصيِّب بذلك: القول الأول: سُمِّيَ بذلك لنزوله، يُقال: صَاب يَصُوب: إذا نَزَلَ؛ ولهذا يقولون: صَوَّبَ نَظَرَهُ، ويُقَال: صَوَّبَ رأسهُ، إذا نَكَّسهُ.

قال البغوي:" كُلُّ مَا نَزَل من الْأَعْلَىٰ إِلَىٰ الْأَسفَل فَهُو صَيِّبٌ "[٤]، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم. القول الثاني: أنهُ بمعنىٰ القَصْدِ، " من صَابَ يَصُوب: إذا قصد، ولا يُقال: صَيِّب إلا للمطر الجَوَاد، كان – عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام – يقول: «اللهم اجعله صَيِّباً هَنِيئاً»[٥]، أي: مطراً جواداً، ويقال أيضاً للسحاب: صَيِّب"[٦]. قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾: الظُّلُمَات التي تكون في الصَّيِّب: ظُلمة الليل –إن كان ذلك بليل– وظُلمة السحاب، وظُلمات المطر[٧]، وفي المراد بهذه الظُلمات في خصوص هذا الْمَثَل أقوال: القول الأول: أنَّ الْمُراد بالظُّلُمَات: الابتلاء، وهذا القول جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق ابن أبي طلحة[٨]. القول الثاني: أنَّ الْمُراد بالظُّلُمَات: " ظُلْمَة ما هم فيه من الكفر والحذر

---

[١] انظر: الكشَّاف (١/٨١).

[٢] انظر: أعلام الموقعين (١/١١٧).

[٣] انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٤.

[٤] معالم التنزيل (١/٦٩).

[٥] أخرجه البخاري برقم (١٠٣٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، بلفظ: «اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا»، وأخرجه باللفظ المذكور: ابن ماجه برقم (٣٨٩٠)، وصحَّحه الألباني.

[٦] ما بين الأقواس من كلام ابن عادل في اللباب (١/٣٨٧).

[٧] انظر: تفسير سورة البقرة لابن عثيمين (١/٦٦).

[٨] تفسير ابن أبي حاتم (١/٥٤).

من الْقَتْلِ– علىٰ الَّذِي هم عليه من الخلاف والتَّخَوُّف لكم، علىٰ مِثْلِ مَا وُصِفَ من الَّذِي هو في ظُلْمَةِ الصَّيِّبِ"[١]، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما.

القول الثالث: أنَّ الْمُراد بالظُّلُمَات: الضَّلالة، يعني: الضَّلَالَات التي في نفوسهم، وهذا منقول عن الضَّحاك[٢]، وهو راجع إلىٰ القول الذي قبله. القول الرابع: أنَّ الْمُراد بالظُّلُمَات: الشكوك والكفر والنفاق، وهذا قول الحافظ ابن كثير[٣]، وهو بمعنىٰ القول الثاني، وقيده الشنقيطي بالشكوك والشُّبَه التي تعتري الكفار والمنافقين في القرآن[٤]، وهذا يتأتىٰ علىٰ تفسير الصَّيِّب بالقرآن.

القول الخامس: أنَّ الْمُراد بالظُّلُمَات: ما يعتري المنافقين عند سماع القرآن من الوحشة، فعبَّر عنها بظُلُمَات، كما تعتري السائر في الليل في حال المطر والغيم وحشةٌ، فتنحجب عنهُ النجوم، فلا يُمَيِّزُ ولا يُبصِر ولا يعرف الاتجاهات والطريق التي يسلكها[٥].

وهذه الأقوال الخمسة ترجع في المعنىٰ إلىٰ ثلاثة، وهي: (الأول، والثاني، والخامس) ولعل أقربها الثاني، كما أنه لا يبعد دخول الجميع تحت معنىٰ الآية، فيكون المعنىٰ شاملا لكل ما يعرض لقلوبهم من الشكوك، والضلالات المتنوعة، وما ينشأ عن ذلك من الوحشة عند سماع القرآن، والله أعلم.

---

[١] السابق

[٢] أبو محمد الضَّحَّاك بن مُزَاحم الهلالي الْمُفسر، توفي سنة (١٠٢هـ) رحمه الله تعالىٰ. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٨)، وانظر قوله في: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٥٤).

[٣] انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٠).

[٤] انظر: أضواء البيان (١/ ١٤).

[٥] انظر: التحرير والتنوير (١/ ٣١٧).

قوله تعالى:﴿ وَرَعۡدٞ ﴾ : اختلف أهل العلم في الْمُراد بالرَّعْد على قولين:
القول الأول: أن الْمُراد بالرَّعْد: هو ما يُزعج القلوب من الخوف، فإنَّ من شأن المنافقين الخوفَ الشديد والفزعَ كما قال تعالى: ﴿ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال : ﴿ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴾[التوبة: ٥٦]، وهو اختيار الحافظ ابن كثير رحمهُ الله[1] .

القول الثاني: أنَّ الْمُراد بالرَّعْد: التخويف ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما[2]، أي: تَخويفُ آيات الوعيد التي في القرآن. وهذا القول مغاير للقول الذي قاله ابن كثير، فابن كثير يقول: هي الْمَخَاوِف التي في نفوسهم، وابن عباس رضي الله عنهما يرى أن المراد :تخويف آيات الوعيد وما شابه ذلك، لكن بين القولين مُلَازَمَةٌ، فهذه الْمَخَاوِف تقع بسبب جُمْلَةٍ من الأمور، منها: الوعيد والتهديد الذي في القرآن، فبين القولين مُلَازَمَةٌ، ويُمْكِنُ الجمع بينهما. قال ابن عاشور: " وفِي هذا تَشبيه لِجزَع المنافقين مِن آيَات الوعيد بِما يعتَري القَائمَ تَحْتَ السَّمَاء حين الرَّعدِ والبَرقِ وَالظُّلُماتِ، فَهوَ يَخشَى استِكَاكَ سَمعِهِ، ويَخشَى الصَّوَاعقَ حذرَ الموتِ، وَيُعَشِّيهِ البرقُ حينَ يلمع بِإضاءة شديدة، وَيعَمِّي عليه الطَّرِيقَ بَعدَ انقطاعِ لمَعانه"[3]. وقد ضرب الله الْمَثَل بالرعد لما في القرآن مِن الزواجر التي تقرع الآذان وتُزعج القلوب، وذَكَر بعضاً منها في آيات أُخر ،كقوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ ﴾ [فصلت:١٣]، وكقوله تعالى:﴿ مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ ﴾[النساء:٤٧]، وكقوله تعالى:﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ

---

[1] انظر: تفسير القرآن العظيم (١/١٩٠).
[2] انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/٥٥).
[3] التحرير والتنوير (١/٣١٩).

﴿ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ:٤٧]. قال الشنقيطي : "وقد ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة الطور من حديث جُبَيْرُ بن مُطْعِم[1] ﷺ أنَّه قال " سمعت النبي ﷺ ، يَقْرَأُ في المغرب بالطور. فلَمَّا بَلَغَ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير"[2]، إلى غير ذلك من قوارع القرآن وزواجِره التي خَوَّفَت المنافقين، حتى قال الله تعالى فيهم :﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ ﴾ [المنافقون:٤]، والآية التي نحن بصددها ، وإن كانت في المنافقين ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص الأسباب"[3].

قوله تعالى:﴿ وَبَرْقٌ ﴾: في الْمُراد بالبَرْق قولان : القول الأول: أنَّ الْمُراد بالبَرْق: هو مَا يَلمَعُ فِي قُلوب هَؤُلَاء الضَّرب مِن المَنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان، وهو قول ابن كثير[4]، وبه قال من المعاصرين: الشيخ محمد الصالح العثيمين[5].

القول الثاني: أنَّ الْمُراد بالبَرْق: هو حجج القرآن وبراهينه الساطعة، ودلائل الحق القوية التي تَبهَتُهُم وتُبهِر أبصارهم، فهم لضعف بصائرهم لا يحتملونها. قال الشنقيطي: " قوله تعالى: ﴿ وَبَرْقٌ ﴾ ضَرَبَ تعالى الْمَثَل بالبرق ؛ لِمَا في القرآن مِن نور الأدلة القاطعة والبراهينِ الساطعة . وقد صَرَّحَ بأن القرآن نورٌ يَكشِف الله به ظُلُمَاتِ الجهل والشك والشرك، كما تُكشف بالنور الحسي ظلماتُ الدُّجَى كقوله:

---

[1] جُبَير بن مُطعِم بن عدي القرشي النوفلي ، أبو محمد ، و قيل: أبو عدي ، المدني رضي الله تعالى عنه، مات سنة سبع، أو ثمان، أو تسع، وخمسين للهجرة. انظر: الاستيعاب(٢٣٢/١)، الإصابة (٤٦٢/١).

[2] أخرجه البخاري برقم (٤٥٧٣)، ومسلم برقم (٤٦٣).

[3] أضواء البيان (١٥/١).

[4] تفسير القرآن العظيم (٩٩/١-١٠٠).

[5] انظر: تفسير سورة البقرة لابن عثيمين (٦٩/١).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[النساء:١٤٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى: ٥٢] وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٧]" [١]. وهذا هو الأقرب، والله أعلم. وقال ابن عاشور:" وقد علمتَ أن الصَّيّب تشبيهٌ للقرآن، وأنَّ الظلماتِ والرعدَ والبرقَ تشبيهٌ لنوازع الوعيد بأنها تَسرُّ أقواماً وهم المنتفعون بالغيث، وتَسُوء المسافرين غيرَ أهلِ تلك الدار، فكذلك الآيات تَسُر المؤمنين إذ يجدون أنفُسَهُم ناجين مِن أن تَحُق عليهم، وتَسُوءُ المنافقين إذ يجدونها مُنْطَبِقَةً على أحوالهم"[٢].

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: الصَّواعق: عبارة عمَّا في القرآن من الإنذار ، والتخويف؛ ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى عنهم في آية أُخرى:﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]. قال ابن جرير:" وإنما جَعَلَ اللهُ إدخالَهم أصابعَهم في آذانهم مثلا لاتِّقائِهم رسولَ الله ﷺ والمؤمنين بما ذكرنا أنهم يَتَّقونهم به، كما يتّقي سامعُ صَوتِ الصاعقة بإدخال أصابعه في أذنيه، وذلك من الْمَثَل نظيرُ تمثيل الله جل ثناؤه ما أنزَل فيهم من الوعيد في آي كتابه بأصوات الصواعق. وكذلك قوله:﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، جعله جلّ ثناؤه مثلا لخوفِهم وإشفاقِهم من حُلُول عَاجِل العقاب الْمُهْلِكِ الَّذِي تَوَعَّدَهُ بساحتهم، كما يجعل سامعُ أصواتِ الصواعق أصَابعه في أذنيه؛ حَذَرَ العَطَبِ والموتِ على نفسه، أنْ تَزهق مِن شدتها"[٣]. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: لا يَفُوتُونَه ولا مَحيد لهم عن إرادته –تبارك وتعالى– فإذا أراد أن يَنزِل العقوبة والهلاك بهم، فإن ذلك يُدركُهُم لا

---

[١] أضواء البيان (١٥/١).

[٢] التحرير والتنوير(٣١٨/١).

[٣] جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧٦/١).

محالة. قال ابن كثير: "أي: ولا يُجدِي عنهم حذرُهم شيئا؛ لأن الله محيطٌ بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج: ١٧-٢٠]"[١].

وقال ابن عاشور: " وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ اعتراض راجع للمنافقين إذ قد حق عليهم التَّمَثُّلُ، واتضح منه حالهم، فآن أن يُنبه على وعيدهم وتهديدهم، وفي هذا رجوعٌ إلى أصل الغرض، كالرجوع في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾ إلخ، كما تقدم، إلا أنه هنا وقع بطريق الاعتراض "[٢]. وقال الشنقيطي:" قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قال بعض العلماء: (محيطٌ بالكافرين) أي: مُهلِكُهُم، ويَشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: تَهلكُوا عن آخِركم. وقيل: تُغلبوا، والمعنى مُتَقارِب ؛ لأن الهَالِك لا يهلك حتى يُحاط به من جميع الجوانب، ولم يَبْقَ له مَنْفَذ للسلامة ينفذ منه، وكذلك المغلوب "[٣].

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: اختُلف في المراد بها على قولين:

القول الأول: أي: لشدَّة ضوء الحق كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه[٤].

قال ابن كثير: " أي: لشدَّته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان"[٥].

---

[١] تفسير القرآن العظيم (١/١٠٠).

[٢] التحرير والتنوير(١/٣٢١).

[٣] أضواء البيان (١/١٥-١٦).

[٤] تفسير ابن أبي حاتم (١/٥٨).

[٥] تفسير القرآن العظيم (١/١٠٠).

وقال به من المعاصرين الشيخ ابن عثيمين[١]، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي حيث قال:" أي: يكاد نورُ القرآن لشدةِ ضوئه يُعمي بصائرهم، كما أن البرقَ الخاطفَ الشديدَ النور يكادُ يَخطفُ بصرَ ناظِره، ولا سيما إذا كان البصرُ ضعيفاً ؛ لأن البصرَ كلما كان أضعف كان النورُ أشدَّ إذهابا له.

كما قال الشاعر: مِثْلَ النَّهار يزيد أبصار الورىٰ ... نوراً ويُعمي أعين الخفاش[٢].

وقال الآخر: خفافيشُ أعماها النهارُ بضوئه ... ووافقها قِطع مِن الليل مظلم[٣].

وبصائر الكفار والمنافقين في غاية الضَّعْفِ. فشِدَّةُ ضوء النور تزيدُها عَمَىً، وقد صَرَّحَ تعالىٰ بهذا العمىٰ في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾[الرعد: ١٩] وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾[فاطر: ١٩] إلىٰ غير ذلك من الآيات"[٤]. القول الثاني: أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾، أي: يكاد مُحكم القرآن يدلُّ علىٰ عَوَرَات المنافقين[٥]، وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق علي بن أبي طلحة[٦].

---

[١] تفسير القرآن الكريم (١/٦٩).

[٢] البيت لهبة الله ابن التلميذ البغدادي، انظر: صيد الأفكار (١/٢٩).

[٣] البيت لابن الرُّومي، وشَطْرُه الثاني -كما في الدِّيوان-: ولاءَمَها قِطْعٌ من الليل غَيهبُ، انظر: ديوان ابن الرُّومي (١/٩٣).

[٤] أضواء البيان (١/١٦).

[٥] انظر: أضواء البيان(١/١٦).

[٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/٥٧).

قوله تعالى:﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ ﴾ : هذا تمثيل لحالِ حيرةِ المنافقين بحال حَيرةِ السائرين في الليل الْمُظلم الْمُرعِد الْمُبرِق[١]. وذكر صاحب الكشَّاف أنه " استئنافٌ ثالثٌ، كأنه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في تَارَتَي خُفُوق البرق وخُفْيَتِه؟ وهذا تمثيلٌ لشِدَّة الأمر على المنافقين بشِدَّتِه على أصحاب الصَّيِّبِ وما هم فيه من غاية التَّحَيُّر والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خَفْقَةً، مع خوفِ أن يخطف أبصارَهم، انتهزوا تلك الخَفقةَ فُرصةً فَخَطَوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وفتَر لَمعانُهُ بقُوا واقفين مُتقيدين عن الحركة"[٢]. وفي الْمُرَاد بالإضاءة أقوال : القول الأول: أنَّ المراد بإضاءته لهم معرفتهم بعضَ الحقِ منه، وإظلامِه عليهم: ما يَعرض لهم من الشَّك فيه، فَتُظْلِمَ قلوبُهم فيقفون مُتحيرين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ ﴾ [البقرة: ٢٠]أي: لشِّدة ضَوء الحق ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ ﴾ [البقرة: ٢٠]أي: كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وتارة تَعْرِض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين"[٣]، وهو قول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمهُ الله[٤].

وهناك قول قد يبدو لأول وَهْلَةٍ أنَّه بمعنى هذا القول إلا أنَّ بينهما نوعَ مُغَايَرَةٍ من وجه دقيق، وذلك أنَّ هذا القول الأول فَسَّرَ أصحابُه الإضاءة هنا بمعرفة الحقِّ أو بعضه. وأما القول الآخر الذي أشرتُ إليه فيزيد على هذا المعنى – وهو معرفة الحق– بكونهم ينطقون به، وذلك كالنُّطْق بكلمة التوحيد ونحو ذلك. وتأمل في هذا المعنى الأخير ما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: "أَي: يَعرِفونَ الحقَّ

---

[١] انظر: التحرير والتنوير (٣١٩/١).

[٢] ما بين الأقواس من كلام الزمخشري في الكشاف (٨٦/١).

[٣] انظر: جامع البيان (٣٦٧/١)، تفسير القرآن العظيم (١٩٠/١).

[٤] انظر: أضواء البيان (١٧/١).

ويتكلَّمونَ بهِ، فَهُم مِن قَولِهِم به على استقَامةٍ، فَإِذَا ارتكَسوا مِنهُ إِلى الكُفرِ قَامُوا أَيِّ: متحيرين"[١]. وعن أبي العالية[٢] قال: "فمَثَلُه كمَثَلِ قوم ساروا في ليلة مُظلِمة، لها مطر ورعد وبرق، على جَادَّة كلما أبرقت أبصروا الجَادَّة فمَضَوا فيها، فإذا ذهب البرق تَحَيَّرُوا، فكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الإخلاص أضاء له، وكلما شكَّ تَحَيَّر ووقع في الظُّلْمَة[٣]. قال ابن أبي حاتم: وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ [٤]، وقتادة، والسُّدِّي[٥]، والرَّبيع بن أنس نحو ذلك[٦].

وقال ابن كثير:" وهو أصح وأظهر "[٧]. القول الثاني: أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ ﴾ أي: إذا أنعم اللهُ عليهم بالمال والعافية قالوا: هذا الدِّينُ حقٌّ، ما أصابنا منذ تمسكنا به إلا الخير. ﴿ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ ﴾ أي: وإن أصابهم فقر أو مَرَض، أو وُلدت لهم البناتُ دون الذكور قالوا: ما أصابنا هذا إلا من شُؤْم هذا الدِّين، وارتدوا عنه. وهذا الوجه يدل له قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١] [٨]. وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما

---

[١] تفسير ابن أبي حاتم (١/٥٨).

[٢] أَبُو العَالِيَةِ رُفَيعُ بنُ مِهرَانَ الرِّيَاحِيُّ البَصرِيُّ، توفي سنة (٩٣هـ). رحمه الله تعالى. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٢١٣).

[٣] تفسير ابن أبي حاتم (١/٥٩).

[٤] الحسن بن يسار، أبو سعيد البصري، مولى زيد بن ثابت، وُلِدَ سنة (٢١هـ)، وتوفي سنة (١١٠ هـ). رحمه الله تعالى. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣).

[٥] أبو محمد اسماعيل بن عبدالرحمن السُّدِّيُّ الْمُفسِّر، توفي سنة(١٢٧هـ). رحمه الله تعالى. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٤).

[٦] تفسير ابن أبي حاتم (١/٥٩).

[٧] تفسير القرآن العظيم (١/١٠٠).

[٨] أضواء البيان (١/١٧).

في قوله تعالى:﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقون من الإسلام خيراً اطمأنوا إليه، وإن أصاب الإسلامَ نَكبةٌ قاموا ليرجعوا إلى الكفر. ثم إذا أظلم عليهم قاموا، كقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ ﴾[١].

قال الرازي:" والمراد من قوله: ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ ﴾ أنه متى حصل لهم شيء من المنافع، وهي عِصمةُ أموالِهم ودمائِهم وحُصُول الغنائم لهم فإنهم يرغبون في الدين﴿ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ ﴾ أي: متى لم يجدوا شيئا من تِلك المنافعِ فحينئذٍ يكرهون الإيمان ولا يرغبون فيه، فهذه الوجوه ظاهرة في التشبيه[٢]. وهذا قال به طوائف من أهل العلم، واختاره ابن جرير رحمه الله. قال ابن جرير رحمه الله تعالى:" فجَعَلَ ضَوءَ البرقِ وشدةَ شُعاعِ نُورِهِ، كضوء إقرارِهم بألسنتهم بالله وبرسولِه ﷺ وبما جاء به مِن عند الله واليوم الآخر وشُعاعِ نوره، مثلا.

ثم قال تعالى ذِكْرُه:﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم ﴾ يعني أن البرقَ كلما أضاء لهم، وجَعل البرقَ لإيمانهم مَثلاً. وإنما أراد بذلك: أنهم كلما أضاء لهم الإيمان، وإضاءتُه لهم: أن يرَوْا فيه ما يُعجبهم في عاجل دنياهم –من النُّصرة على الأعداء، وإصابةِ الغنائم في المغازي، وكثرةِ الفتوح، ومنافعِها، والثراءِ في الأموال، والسلامةِ في الأبدان والأهلِ والأولاد – فذلك إضاءتُه لهم؛ لأنهم إنما يُظهرون بألسنتهم ما يُظهرونه مِن الإقرار، ابتغاءَ ذلك، ومُدافعةً عن أنفسهم وأموالِهم وأهليهم وذَراريهم، وهم كما وصفهم الله جلّ ثناؤه بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾.

---

[١] تفسير ابن أبي حاتم (١/٥٨).

[٢] مفاتيح الغيب (٢/٣١٦).

ويعني بقوله:"﴿مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾، مَشَوا في ضوء البرق. وإنما ذلك مَثَلٌ لإقرارهم على ما وصفنا. فمعناه: كلما رأوا في الإيمان ما يُعجبهم في عاجل دنياهم على ما وصفنا، ثبتوا عليه وأقاموا فيه، كما يمشي السائرُ في ظُلمةِ الليل وظُلمةِ الصَّيِّب الذي وصفه جل ثناؤه، إذا بَرَقَت فيها بارقةٌ أبصرَ طريقَه فيها"[1]. ومن دَقَّق النظر في كلام ابن جرير الْمُتَقَدِّم فإنه يَلُوح له وَجْهٌ من الارتباط بين هذا المعنى —الثاني— والمعنى الأول، وهو تفسير الإضاءة هنا بالمعرفة أو ما يتبع ذلك من إقرار اللسان بالإيمان، فيرجع القولان إلى معنى واحد، والله أعلم. القول الثالث: أنَّ المراد بقوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ أنَّ المنافقين إذا كان القرآنُ موافقاً لهواهم ورغبتِهم عمِلوا به، وإذا كان غيرَ موافق لهواهم كبذل الأنفس، والأموال في الجهاد في سبيل الله المأمور به فيه وقفوا وتأخروا. قال الشنقيطي :"ضرب الله في هذه الآية الْمَثَل للمنافقين بأصحابِ هذا المطر إذا أضاء لهم مَشَوا في ضَوْئِه، وإذا أظلم وقفوا، كما أن المنافقين إذا كان القرآنُ مُوَافقاً لهواهم ورغبتِهم عمِلوا به، كَمُناكحتهم للمسلمين، وإرثهم لهم، والقَسْمِ لهم مِن غنائم المسلمين، وعِصمتِهم به مِن القتل مع كفرهم في الباطن، وإذا كان غيرَ موافق لهواهم كبَذْل الأنفس، والأموال في الجهاد في سبيل الله المأمور به فيه وقفوا وتأخروا. وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾[سورة النّور] "[2]. والفرق بين هذا القول والذي قبله: أن مراد أصحاب القول الثاني: الآثار التي تعقب دعواهم الإيمان من الغنيمة وغيرها

---

[1] جامع البيان في تأويل القرآن (١/٣٥٨).

[2] أضواء البيان (١/١٦).

من المكاسب العاجلة. وأما على القول الأخير –الثالث– فذلك فيما يجدونه في مضامينه مما يُوَافق أهواءهم من تشريعاته وأوامره ونواهيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾: جاء هذا التعقيب ليُبين أنَّ الله تبارك وتعالى يُجازيهم على تَركِهم الانتفاع بالأسماع والأبصار، وذلك أنَّ هؤلاء بمنزلة الصُمِّ البُكمِ العُمي؛ لأنَّ الله أعطاهم أسماعاً لم يُعمِلوها فيما يَنفعُهم ويَرفعُهم، وأعطاهم أبصاراً لم يُعمِلوها فيما ينفعهم، وجَعَلَ لهم قُلوباً لم يَعقِلُوا بها، فصارت طُرُقُ الإيمان مَسدُودةً عليهم، فالله تبارك وتعالى يقول :

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي : الحسِّية ، ففيه تحذيرٌ لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية ، ليحذروا ، فَيَرْتَدِعُوا عن بعض شرِّهم ونفاقِهم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يُعجزه شيء ، ومِن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فَعله مِن غير مُمانعٍ ولا مُعارِض[١]. وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أَي: لِمَا تَرَكُوا مِنَ الْحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ [٢].

و عن أبي العالية رحمه الله تعالى قال: ذَكَرَ أَسْمَاعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمُ الَّتِي عَاشُوا بِهَا فِي النَّاسِ[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال ابن جرير: إنَّما وَصَفَ الله تعالى نفسَه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنَّه حذَّرَ المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وأنَّه على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ومعنى قدير: قادر، كما أن معنى عليم: عالم"[٤]. قال ابن عاشور :" وقوله:

---

[١] انظر: تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان(١/٤٤).

[٢] تفسير ابن أبي حاتم (١/٥٩).

[٣] السابق

[٤] جامع البيان (١/٣٨٤).

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ رجوع إلى وعيد المنافقين الذين هم المقصود من التمثيل... فعبَّر عن زواجر القرآن بالصواعق، وعن انحطاط قلوب المنافقين وهي البصائر عن قَرَار نور الإيمان فيها بخَطْفِ البرق للأبصار... وعَبَّر عما يحصل للمنافقين من الشك في صحة اعتقادهم بمشي الساري في ظُلْمَة إذا أضاء له البرق، وعن إقلاعهم عن ذلك الشك حين رجوعهم إلى كفرهم بوقوف الماشي عند انقطاع البرق على طريقة التمثيل، وخَلَّلَ ذلك كله بتهديد لا يناسب إلا الْمُشَبَّهِينَ، وهو ما أفاده الاعتراض بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ فجاء بهذه الجُمَلِ الحالية والمستأنفة تنبيهاً على وجه الشَّبَه وتقريراً لقوةِ مُشَابهةِ الزواجر وآيات الهدى والإيمان بالرعد والبرق في حصول أَثَري النفعِ والضُرِ عنهما"[١]. وقال :" وقد صِيغَ هذا المعنى في هذا الأسلوب لما فيه من التوجيه بالتهديد لهم أن يُذْهِب الله سمعهم وأبصارهم من نفاقهم إن لم يبتدروا الإقلاع عن النفاقِ، وذلك يكون له وَقْعُ الرُّعْب في قلوبهم كما وقع لعُتْبَة بن ربيعة لما قرأ عليه النبيء ﷺ: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ؛ فليس المقصود من اجتلاب (لو) في هذا الشرط إفادة ما تقتضيه (لو) من الامتناع؛ لأنه ليس المقصود الإعلام بقدرة الله على ذلك، بل المقصود إفادة لازم الامتناعِ، وهو أنَّ تَوَفُّرَ أسباب إذهابِ البرقِ والرعدِ أبصارَهم الوَاقِعَينِ في التمثيل مُتَوَفِّرَة، وهي كُفران النعمة الحاصلة منهما، إذ إنما رُزِقُوهُما للتبصر في الآيات الكونية، وسماع الآيات الشرعية، فلما أعرضوا عن الأمرين كانوا أَحْرِياء بسَلْب النعمة، إلا أن الله لم يشأ ذلك إمهالاً لهم، وإقامةً للحجة عليهم... فالمعنى: لو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم بزيادة ما في البرق

---

[١] التحرير والتنوير (١/٣١٩-٣٢٠)

والرعد من القوة، فيفيد بلوغ الرعد والبرق قُربَ غاية القوة، ويكون لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ موقع عجيب.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل، وفيه ترشيح للتوجيه المقصود للتهديد زيادة في تذكيرهم، وإبلاغا لهم وقطعا لمعذرتهم في الدنيا والآخرة"[١]. وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله :" وهذه الأقوال التي ذكرنا عمن رويناها عنه، فإنها وإن اختلفت فيها ألفاظ قائليها متقاربات المعاني؛ لأنها جميعًا تُنبئ عن أن الله ضَرَب الصَّيِّب لظاهرِ إيمانِ المنافق مَثلا، وَمثَّلَ ما فيه من ظلمات لضلالته، وما فيه من ضياءِ برقٍ لنور إيمانه، واتقاءَه من الصواعق بتصيير أصابِعه في أُذنيه، لضَعفِ جَنانِه ونَخْبِ فؤاده مِن حُلول عقوبة الله بساحته، وَمشيَه في ضوء البرق باستقامتِه على نور إيمانه، وقيامَه في الظلام، لحيرته في ضلالته وارتكاسِه في عَمَهه . فتأويل الآية إذًا -إذْ كان الأمرُ على ما وصفنا- أو مَثَلُ ما استضاء به المنافقون - مِن قِيْلِهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بألسنتهم: آمنا بالله وباليوم الآخر وبمحمد وما جاء به، حتى صار لهم بذلك في الدنيا أحكامُ المؤمنين، وهم مع إظهارهم بألسنتهم ما يُظهرون بالله وبرسوله ﷺ وما جاء به من عند الله وباليوم الآخر، مُكذِّبون، ولخلاف ما يُظهرون بالألسُن في قلوبهم مُعتَقدون، على عمًى منهم، وجهالةٍ بما هم عليه مِن الضلالة، لا يدرون أيّ الأمرين اللذين قد شَرَعا لهم فيه الهداية ، أفي الكفر الذي كانوا عليه قبل إرسال الله محمدًا ﷺ بما أرسله به إليهم، أم في الذي أتاهم به محمدٌ ﷺ مِن عند ربهم؟ فهم مِن وعيد الله إياهم على لسان محمد ﷺ وَجِلون، وهم مع وَجَلِهم مِن ذلك في حقيقته شاكُّون، في قلوبهم مَرَض فزادهمُ الله مَرَضًا. كمثل غَيثٍ سَرى ليلا في مُزنَة ظلماء وليلةٍ مُظلمة يَحدُوها رعدٌ، ويستطير في حَافَّاتها برقٌ

---

[١] السابق (١/٣٢٣).

شديد لَمَعانُه، كثيرٌ خَطرانُه، يكاد سَنا برقه يَذهب بالأبصار ويختطفها مِن شدة ضيائه ونورِ شعاعه، ويَنهبطُ منها تاراتٌ صواعقُ، تكاد تَدَع النفوس مِن شدة أهوالها زَواهق.

فالصيِّب مَثَلٌ لظاهر ما أظهر المنافقون بألسنتهم من الإقرار والتصديق، والظلماتُ التي هي فيه لظُلماتِ ما هم مُسْتَبْطِنُون مِن الشك والتكذيب ومرض القلوب، وأما الرعدُ والصواعق، فلِما هم عليه من الوَجَل مِن وعيد الله إياهم على لسان رسولِه ﷺ في آي كتابه، إما في العاجل وإما في الآجل، أنْ يحلّ بهم، مع شكهم في ذلك: هل هو كائن أم غير كائن؟ وهل له حقيقة أم ذلك كذبٌ وباطلٌ؟ – مَثَلٌ[١]. فهم مِن وَجلِهم، أن يَكون ذلك حَقًّا، يَتَّقُونَه بالإقرار بما جاء به محمد ﷺ بألسنتهم، مخَافَةً على أنفسهم من الهلاك ونُزُولِ النَّقِمَات. وذلك تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، يعني بذلك: يتقون وَعيدَ الله الذي أنزله في كتابه على لسان رسوله ﷺ، بما يُبدُونَه بألسنتهم مِن ظاهر الإقرار، كما يتّقي الخائفُ أصواتَ الصواعق بتغطية أُذُنيه وتصيير أصابعه فيها، حَذَرًا على نفسه منها"[٢].

المطلب الخامس: أوجه الْمُشابهة بين حال هذا السائر في الصَّيِّب، وحال المنافق:

ذكر بعض العلماء سبعة أوجه في هذا الْمَثَل هي من وجوه الْمُشَابَهَة بين حال هذا السائر في المطر في الصَّيِّب، وما وصف الله –عز وجل– خبره؛ وبين

---

[١] تقدير الكلام: وأما الرعود والصواعق فمَثَلٌ لما هم عليه من الوَجَل.

[٢] جامع البيان في تأويل القرآن (١/٣٥٢–٣٥٣).

المنافق[١]: الوجه الأول: أنه إذا حصل السحاب الذي فيه الظُّلُمَات والرَّعد والبرق، واجتمع مع ظُلمَة السَّحاب ظُلْمَة الليل و ظُلْمَة المطر عند وُرُود الصواعق عليهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، وأن البرق يكاد يَخْطَف أبصارهم، فإذا أضاء لهم مَشَوْا فيه، وإذا ذَهَبَ بَقُوا في ظُلْمَة عظيمة فوقفوا مُتحيرين؛ لأنَّ من أصابه البرق في هذه الظلمات الثلاث ثم ذهب عنه تشتد حَيْرَته، وتعظُم الظُّلمَة في عينه، وتكون له مَزية على من لم يَزَل في الظُّلْمَة، فشبَّه المنافقين في حَيْرَتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء الذين وصفهم، إذ كانوا لا يرون طريقاً ولا يهتدون. الوجه الثاني: أنَّ المطر –وإن كان نافعاً– إلا أنهُ لَمَّا وُجِد في هذه الصورة مع هذه الأحوال الضارَّة صار النفع به زائلاً، فكذا إظهار الإيمان نافعٌ للمنافق لو وافقه الباطن، فإذا فُقِد منهُ الإخلاص وحصل معه النفاق صار ضرراً في الدين. الوجه الثالث: أنَّ من نزل به هذه الأمور مع الصواعق ظن الْمَخْلَصَ منها أن يَجعل أصابعه في أذنيه، وذلك لا يُنجيه مما يريده تعالى به من هلاك وموت، فَلمَّا تقرر ذلك في العادات شَبَّه تعالى حال المنافقين في ظنهم أن إظهارهم للمؤمنين ما أظهروه ينفعهم، مع أن الأمر في الحقيقة ليس كذلك بما ذكر. الوجه الرابع: أنَّ عادة المنافقين كانت هي التأخر عن الجهاد فراراً من الموت والقتل، فشَبَّه الله حالَهم في ذلك بحالِ مِن نزلت هذه الأمور به وأراد دَفْعَهَا يجعل إصبعيه في أُذُنيه. الوجه الخامس: أنَّ هؤلاء الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم وإن تَخَلَّصُوا عن الموت في تلك الساعة، فإنَّ الموتَ والهلاكَ مِن ورائهم لا مُخَلِّصَ لهم منه، فكذلك حالُ المنافقين في أن الذي يخوضون فيه لا يُخَلِّصُهُمْ من عذاب النار. الوجه السادس: أنَّ مَن هذا حالُه فقد بلغ النهاية في الحَيْرَة لاجتماع أنواع الظُّلُمَات وحصول أنواع الْمَخَافَة، وحصل في المنافقين نهاية الحيرة في باب الدين ونهاية الخوف في الدنيا؛

---

[١] انظر: مفاتيح الغيب (٢/٣١٥-٣١٦).

لأن المنافق يتصور في كل وقت أنه لو حصل الوقوفُ على باطنه لقُتل، فلا يكادُ الوَجَلُ والخوفُ يَزولُ عن قلبه مع النفاق. الوجه السابع: الْمُرَاد من الصَّيِّب هو الإيمانُ والقرآنُ، والظلماتُ والرعدُ والبرقُ –على أحد الأقوال– هو الأشياءُ الشاقةُ على المنافقين، وهي التكاليف الشَّاقَّة من الصلاة والصوم وترك الرياسات والجهاد مع الآباء والأمهات، وترك الأديان القديمة،والانقياد لمحمد ﷺ مع شدة استنكافهم عن الانقياد له، فكما أن الإنسان يُبَالِغ في الاحتراز عن المطر الصَّيِّب الذي هو أشدُّ الأشياء نَفْعَاً بسبب هذه الأمور الْمُقَارِنَةِ، فكذا المنافقون يَحتَرِزُون عن الإيمان والقرآن بسبب هذه الأمور الْمُقَارِنَةِ.

المبحث الثالث

الْمَثَلُ الثَّالث " ضرب المثل بحال الكافر "

قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

المطلب الأول : معنى الْمَثَل (الكُلِّي) باعتباره مُرَكَّباً:

إذا أردنا أن نُبين الْمُشَبَّه والْمُشَبَّه به في هذه الآية فلا بد أن نعرف أولاً أن للعلماء من أهل التأويل في هذه الآية طريقان: أحدهما: تصحيح المعنى بالإضمار في الآية. والثاني: إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار.

أولاً : على تقدير الإضمار: مِن أهل العلم من يقول: في الآية مُضمر مُقدَّرٌ، وقد ذكروا في هذا الْمُقدَّر وجوهاً: الوجه الأول: وَمَثَلُ مَن يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثل الذي يَنْعِق، فصار الناعقُ الذي هو الراعي بمنزلة الداعي إلى الحق، وصار الكفارُ بمنزلة الغنم الْمَنْعُوقِ بها.

ووجهُ التشبيه: أنَّ البهيمة تَسْمَع الصوت ولا تَفْهَم المراد، وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول ﷺ وألفاظَه، وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها لا جرم حَصَلَ وجه التشبيه[١].

وهذا المعنى هو الذي عليه عامَّةُ أهل العلم سلفاً وخلفاً، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة[٢]، والسُّدي[٣]، وسيبويه[٤]، و الفرَّاء[٥]، وابن جرير[٦]، والزَّجَّاج[٧]، وابن قتيبة[٨]،وصاحب الكشاف[٩]، والقرطبي[١٠]، وابن القيم[١]،وابن

---

[١] مفاتيح الغيب (٥/١٨٩).

[٢] انظر أقوالهم في: جامع البيان (٣/٤٤-٤٥).

[٣] السابق (٣/٤٧).

[٤] انظر: الكتاب (١/٢١٢).

[٥] انظر: معاني القرآن للفراء (١/٩٩).

[٦] انظر: جامع البيان (٣/٥٠).

[٧] انظر: معاني القرآن (١/٢٤٢).

[٨] انظر: غريب القرآن، ص ٦٥.

[٩] انظر: الكشَّاف (١/ ٢١٤).

[١٠] انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢١٤).

القيم[١]،وابن كثير[٢]،والسعدي[٣]، وابن عاشور[٤] من المعاصرين. جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ كَمَثَلِ الْبَعِيرِ وَالْحِمَارِ وَالشَّاةِ، إِنْ قُلتَ لِبَعْضِهِم كَلامًا لَمْ يَعْلَم مَا تَقُولُ، غَيرَ أَنَّهُ يَسْمَعُ صَوْتَكَ، وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ، إِن أَمَرْتَهُ بِخَيْرٍ، أَو نَهَيْتَهُ عَن شَرٍّ أَوْ وَعَظْتَهُ لَمْ يَعْقِل مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّهُ يَسمَعُ صَوتَكَ [٥]. وفي رواية عنه أيضاً: مَثَل الدابة تُنَادَىٰ فتَسمَعُ ولا تَعقِل ما يُقال لها، كذلك الكافر، يَسمَع الصوت ولا يَعقِل[٦]. وجاء عن مجاهد : ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ : الراعي بما لا يَسمَعُ من البهائم[٧]. وعليه فيكون الْمَثَل قد ضُرِبَ لتصوير حال الكافر في قلة فَهمِه عن الله ما يُتلىٰ عليه في كتابه، وسُوء قبوله لما يُدعَىٰ إليه مِن توحيد الله ويُوعظ به مثلُ البهيمة التي تسمع الصوتَ إذا نُعق بها، ولا تعقلُ ما يُقال لها[٨]. وقال أبو جعفر بن جرير رحمهُ الله : "ومعنىٰ قائلي هذا القول في تأويلهم ما تأوّلوا، علىٰ ما حَكَيتُ عنهم : ومثَلُ وَعْظِ الذين كفروا وواعظِهم، كمثل نَعْق الناعق بغنمه ونَعيقِه بها، فأُضِيفَ"الْمَثَل " إلىٰ الذين كفروا، وتُرِك ذِكْرُ"الوعظ والواعظ"، لدلالة الكلام علىٰ ذلك، كما يُقَال:"إذا لَقِيْتَ فلانًا فعَظِّمه تعظيمَ السلطان"، يُراد به: كما

---

[١] انظر: إعلام الموقعين (١/١٤٠).

[٢] انظر: تفسير القرآن العظيم (١/٤٨٠).

[٣] انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٨١.

[٤] انظر: التحرير والتنوير (٢/١١١).

[٥] تفسير ابن أبي حاتم (١/٢٨٢).

[٦] جامع البيان في تأويل القرآن (٣/٣٠٩).

[٧] السابق (٣/٣١٠).

[٨] السابق (٣/٣٠٨).

تُعظِّم السلطانَ، وكما قال الشاعر: فَلَسْتُ مُسَلِّمًا مَا دُمْتُ حَيًّا ... عَلَى زَيْدٍ بِتَسْلِيمِ الأَمِيرِ[١].

يُرَاد به: كما يُسلِّم على الأمير. وقد يُحتمل أن يكون المعنى على هذا التأويل الذي تَأَوَّلَه هؤلاء: ومَثَلُ الذين كفروا في قِلَّةِ فهمِهم عن الله وعن رسوله، كمَثَلِ المنعُوق به مِن البهائم، الذي لا يَفقه مِن الأمر والنهي غير الصوت. وذلك أنه لو قيل له:"اعْتَلِف، أو: رِدِ الماء"، لم يَدرِ ما يُقال له غير الصوت الذي يسمعه مِن قائله. فكذلك الكافر، مَثَلُه في قلة فَهمه لما يُؤمر به ويُنهى عنه بسوء تَدَبُّره إياه وقِلَّةِ نظره وفِكرِه فيه– مَثلُ هذا الْمَنعوق به فيما أُمِر به ونُهِي عنه. فيكون المعنى للمَنْعوق به، والكلام خارجٌ على النَّاعِق.

وأولى التأويل عندي بالآية، التأويلُ الأول الذي قاله ابنُ عباس ومَن وافقه عليه. وهو أن معنى الآية: ومَثَل وَعظِ الكافر وواعظِه، كمَثَل الناعقِ بغنمهِ ونَعيقهِ، فإنه يَسمع نَعقَهَ ولا يعقل كلامه، على ما قد بينا قبل"[٢]. وقال صاحب الكشَّاف:" لا بدّ من مضافٍ محذوف تقديره: ومَثَلُ داعى الذين كفروا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ، أو: ومَثَلُ الذين كفروا كبهائم الذي ينعق. والمعنى: ومَثَلُ داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جَرسَ النغمة ودَوِيَّ الصوت، مِن غير إلقاءِ أذهان ولا استبصار كمثل الناعق بالبهائم، التي لا تسمع إلا دعاءَ الناعق ونداءَه الذي هو تصويتٌ بها وزجرٌ لها، ولا تفقه شيئا آخر ولا تعي، كما يَفهمُ العقلاءُ ويَعُونَ.

---

[١] البيت حكاه الأصمعي عن أعرابي قاله في صاحبٍ له تولَّى إمارة أصفهان، انظر: حدائق الأزاهر (ص١٠٥).

[٢] جامع البيان في تأويل القرآن (٣/٣١٠–٣١٣).

ويجوز أن يُراد بما لا يسمع: الأصمُّ الأصلَخ، الذي لا يسمع من كلام الرَّافع صوتَه بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير، من غير فهم للحروف"[١]. وقال القرطبي رحمه الله تعالى:شَبَّهَ –تعالى– واعظَ الكفار وداعيهم، وهو محمد ﷺ بالراعي الذي يَنعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تفهم ما يقول... وهذه نهاية الإيجاز. قال سيبويه: لم يُشبَّهوا بالناعق، إنما شُبِّهُوا بالمنعوق به.

والمعنى: ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، فحُذِف لدلالة المعنى"[٢]. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: " قوله تعالى:﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: فيما هم فيه من الغَيّ والضلال والجهل، كالدَّوابِّ السارحة التي لا تفقه ما يُقال لها، بل إذا نَعَق بها راعيها، أي: دعاها إلى ما يُرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوتَه فقط."[٣].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمهُ الله : " لَمَّا بيَّن تعالى عَدَمَ انقيادِهم لما جاءت به الرسل، وردَّهم لذلك بالتقليد، عُلِم من ذلك أنهم غيرُ قابلين للحق، ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يَزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى، أن مَثَلَهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمَثَل البهائم التي يَنعِق لها راعيها، وليس لها عِلم بما يَقُول راعيها ومناديها، فهم يسمعون مجردَ الصوت، الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فِقْهًا يَنفعُهم؛ فلهذا كانوا صُمَّاً لا يسمعون الحق سماعَ فهمٍ وقَبُولٍ، عُمياً لا ينظرون نَظَر اعتبار، بُكْماً فلا ينطقون بما فيه خيرٌ لهم. والسببُ الْمُوجِبُ لذلك كُلِّه، أنه ليس لهم عَقلٌ صحيح، بل هم

---

[١] الكشاف (١/٢١٤).

[٢] الجامع لأحكام القرآن (٢/٢١٤).

[٣] تفسير القرآن العظيم (١/٣٤٩).

أَسفهُ السفهاء، وأجهلُ الجهلاء. فهل يَسْتَرِيبُ العاقلُ، أن مَن دُعي إلى الرشاد، وذِيدَ عن الفساد، ونُهي عن اقتحام العذاب، وأُمِرَ بما فيه صلاحه وفلاحه، وفوزه، ونعيمُه فعَصَىٰ الناصح، وتولىٰ عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل، ونَبذَ الحق أن هذا ليس له مُسكةٌ من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء، فإنه مِن أَسْفَه السفهاء"[١]. الوجه الثاني: مَثَلُ الذين كفروا في دعائهم آلهتَهم من الأوثان كمَثَلِ الناعق في دعائه ما لا يسمع كالغنم، وما يجري مجراه من الكلام، والبهائم لا تفهم. فشَبَّهَ الأصنام في أنها لا تفهم بهذه البهائم، فالمحذوف هو المدعو، وفي القول الذي قبله المحذوف هو الداعي[٢]. وإلىٰ هذا المعنىٰ ذهب قُطرُب[٣]، ونَسَبَهُ ابن كثير لابن جرير[٤] ولا يصحُّ عنه. وقيل: يكون التقدير: « وَمَثَلُ الَّذين كَفَروا في دُعائهم آلِهَتَهُمْ التي لا تَفْقَهُ دُعَاءَهُم، كَمَثَلِ النَّاعِقِ بِغَنَمِهِ؛ لا ينتفع من نَعِيقِهِ بشَيءٍ غير أنَّه في عناءٍ» ؛ وكذلك الكافرُ ليس له من دعائه آلهته إلاَّ العناء؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾" [٥]. وهذا المعنىٰ غيرُ مُستبعد من جهة السياق واحتمال الآية له، ولكنَّ المعنىٰ الذي قبله أقوىٰ، وشواهد القرآن تدلُّ عليه، وقد رَدَّ هذا القولَ ابنُ كثير فقال: " لأن الأصنامَ لا تَسمع شيئاً ولا تَعقله ولا تُبصره، ولا بطش لها ولا حياة فيها"[٦]. وقال في الكشاف: "إلا أنّ قوله ﴿ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ لا يُساعد عليه،

---

[١] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٨١).

[٢] مفاتيح الغيب (٥/ ١٩٠).

[٣] أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد، عالم نحوي، توفي سنة(٢٠٦هـ)رحمه الله تعالىٰ. انظر ترجمته في: الأعلام (٧/ ٩٥)، وقوله أشار إليه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن(٢/ ١٥).

[٤] انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٩).

[٥] اللباب في علوم الكتاب (٣/ ١٦٣).

[٦] تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٩).

لأنّ الأصنام لا تسمع شيئا[١]. قال أبو حيان رحمه الله : "ولَحَظ الزمخشري في هذا القول تمام التشبيه من كُلِّ جهة، فكما أنَّ المنعوقَ به لا يَسمعُ إلا دعاءً ونداءً، فكذلك مدعُو الكافرِ من الصنم، والصنم لا يَسمعُ، فضَعُف عنده هذا القول. ونحن نقول: التشبيه وقَعَ في مُطلقِ الدعاء، لا في خُصوصيات المدعو، فشَبَّهَ الكافر في دعائه الصنم بالناعقِ بالبهيمة، لا في خُصوصيات المنعُوقِ به"[٢]. وقد أجاب الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالىٰ عن الاستشكال الذي أورده صاحب الكشَّاف بثلاثة أجوبة. قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: " واستشكل صاحب الكشاف وجماعة معه هذا القول، وقالوا: قوله: {إلا دعاء ونداء} [البقرة: ١٧١] لا يساعد عليه؛ لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء. وقد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة: أحدها: أن " إلا " زائدة، والمعنىٰ: بما لا يَسمع دعاء ونداء، قالوا: وقد ذكر ذلك الأصمعي[٣] في قول الشاعر:

حَراجيجُ ما تنفكُّ إلا مُناخةً [٤]. أي: ما تنفكُّ مُنَاخَة. وهذا جواب فاسد، فإن " إلا " لا تزاد في الكلام.

الجواب الثاني: أنَّ التشبيه وَقَعَ في مُطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو.

الجواب الثالث: أنَّ المعنىٰ: أن مَثَل هؤلاء في دعائَهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم كمَثَل الناعق بغنمه، فلا ينتفع مِن نَعِيْقِه بشيء، غير أنه هو في دعاء ونداء، وكذلك الْمُشْرِك ليس له من دعائه وعبادته إلا العَنَاء[١].

---

[١] الكشاف(١/٢١٤).

[٢] البحر المحيط في التفسير(٢/١٠٥).

[٣] أَبُو سَعِيْدٍ عَبْدُ المَلِكِ بنُ قُرَيْبٍ الأَصْمَعِيُّ، ولد سنة بضع وعشرين ومئة، توفي في سنة (٢١٥هـ)، رحمه الله تعالىٰ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/١٧٥).

[٤] البيت لذي الرُّمَّة، والحراجيج: جمع حُرجوج، وهي الناقة السمينة أو الشَّديدة. انظر: ديوان ذي الرُّمَّة ، ص ٨٦.

الوجه الثالث: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ قَالَ «الرجل الذي يَصِيح في جوف الجبال فَيُجِيبُه فيها صوتٌ يُرَاجِعُهُ يُقال له: الصَّدَى، فَمَثَلُ آلهة هؤلاء لهم كَمَثَلِ الذي يُجِيبُهُ بهذا الصَّوْت لا ينفعه، لا يسمع إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً» قال: والعرب تُسَمِّي ذلك: الصَّدَى[٢].

ثانياً: إجرَاءُ الآيةِ على ظاهرها من غير إضمار: وقد اختلفوا فيها على وجهين :

الوجه الأول: مَثَل الذين كفروا في قِلَّةِ عقلهم في عبادتهم لهذه الأوثان، كَمَثَل الراعي إذا تكلَّم مع البهائم، فكما أنه يُقضَى على ذلك الراعي بقِلَّةِ العقل، فكذا هاهنا[٣].

الوجه الثاني: مَثَلُ الذين كفروا في اتِّبَاعِهم آباءَهُم وتقليدهم لهم، كمَثَلِ الراعي إذا تكلَّم مع البهائم، فكما أنَّ الكلام مع البهائم عَبَثٌ عديم الفائدة، فكذا التقليد عَبَثٌ عديم الفائدة[٤].

وصَوَّر هذا القول صاحب الكشَّاف بقوله :" وقيل معناه: ومَثَلُهم في اتباعِهم آباءهم وتقليدهم لهم، كَمَثَل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت، ولا تفهم ما تحته، فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أَهُم على حق أم باطل"[٥]. وقال الرازي:" اعلم أنَّه تعالى لما حَكَى عن الكفار أنهم عند الدعاء إلى

---

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٤٠).

(٢) جامع البيان (٣/ ٤٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٥/١٩٠).

(٤) السابق.

(٥) الكشاف (١/٢١٤).

اتباع ما أنزل الله تركوا النظر والتدبر، وأخلدوا إلى التقليد، وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ضَرَب لهم هذا الْمَثَل تنبيهاً للسامعين لهم أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء، وقلةِ الاهتمام بالدين، فصَيَّرهم مِن هذا الوجه بمنزلة الأنعام، ومِثلُ هذا الْمَثَل يزيد السامعَ معرفةً بأحوال الكفار، وَيُحَقِّرُ إلى الكافر نَفسهُ إذا سمع ذلك، فيكون كَسْرًا لقلبه، وتَضْيِيقًا لصدره، حيث صَيَّرَهُ كالبهيمة، فيكون في ذلك نهايةُ الزجر والردع لِمَن يَسمَعُهُ عن أن يسلك مثلَ طريقه في التقليد"[1]. وخلاصة ما سبق من الأقوال في الْمُشَبَّه والْمُشَبَّه به في هذه الآية: أنَّ الْمَثَل مضروبٌ بتشبيه: -داعي الكفار إلى الحق، كمن يَنعِق بالبهائم التي لا تعقل.

-الكافر في دعائه للأصنام والمعبودات الباطلة، كمن يَنعِق بالبهائم التي لا تعقل.

-الكفار في قِلَّة عقلهم حيث عَبَدُوا الأوثان كمَثَل الراعي إذا تكلم مع البهائم.

-الكفار في تقليدهم الآباء في ظاهر حالهم من غير علم بما معهم، كحال الراعي إذا نَعَقَ بالبهائم فهي لا تعقل سوى ظاهر الصوت من غير علم ودراية بما تحته. فهذه أربعة أقوالٍ[2]. وقد حاول بعض أهل العلم الجمع بين هذه المعاني كما قال ابن عاشور رحمه الله تعالى:" والْمَثَل هنا لَمَّا أُضيف إلى الذين كفروا كان ظاهراً في تشبيه حالِهم عند سماع دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الإسلام بحالِ الأنعام عند سماع دعوةٍ مَن يَنعق بها في أنهم لا يفهمون إلا أن النبي ﷺ يدعوهم إلى مُتَابَعَته مِن غير تَبَصُّرٍ في دلائِل صدقِه وصحةِ دينِه. فكلٌ مِنَ الْحَالَةِ الْمُشَبَّهَةِ وَالْحَالَةِ الْمُشَبَّهِ

---

[1] مفاتيح الغيب (١٨٩/٥).

[2] انظر: اللباب في علوم الكتاب (١٦٣/٣).

بها يشتمل على أشياء: داع ومدعو ودعوة، وفَهم وإعراض وتصميم، وَكُلٌّ مِنْ هَاتِهِ الأشياء التي هي أجزاءُ التشبيه الْمُركَّب صالح لأن يكون مُشَبَّهًا بجزء من أجزاء الْمُشَبَّه به، وهذا مِن أبدع التمثيل، وقد أوجَزَته الآيةُ إيجازاً بديعاً. والمقصودُ ابتداءً هو تشبيهُ حال الكفار لا محالة، ويَسْتَتْبِع ذلك تَشبيه حالِ النبي وحالِ دعوته، وللكفار هنا حالتان: إحداهما: حالةُ الإعراض عن داعي الإسلام.

والثانيةُ: حالةُ الإقبالِ على عبادةِ الأصنامِ. وقد تضمنت الحالتين الآيةُ السابقة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وأعظمُه عبادةُ الأصنام، فجاء هذا الْمَثَل بيانا لما طُوي في الآية السابقة. والآيةُ تحتمل أن يكون الْمُراد تشبيه حال المشركين في إعراضهم عن الإسلام بحال الذي يَنْعِق بالغنم، أو تشبيه حالِ المشركين في إقبالهم على الأصنام بحالِ الداعي للغنم، وأياً ما كان فالغنمُ تسمعُ صوت الدعاء والنداء ولا تفهم ما يتكلم به الناعق، والمشركون لم يهتدوا بالأدلة التي جاء بها النبيء ﷺ فيكون قوله: ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ مِن تَكْمِلَة أوصاف بعض أجزاء الْمُركَّب التمثيلي في جانب الْمُشَبَّه به، وذلك صالح لأن يكون مجردَ إتمامٍ للتشبيه إن كان المراد تشبيه المشركين بقِلَّة الإدراك، ولأن يكون احتراساً في التشبيه إن كان المرادُ تشبيه الأصنام حين يدعُوها المشركون بالغنم حين يَنعِق بها رُعَاتُها، فهي لا تسمع إلا دُعاءً ونداءً، ومعلوم أنَّ الأصنام لا تسمع لا دُعاءً ولا نداءً"[1]. وهذه محاولة من الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في الجمع بين بعض هذه الأقوال، وإن كان كلامه قد لا يُسَلَّم بإطلاق. وأحسنُ منه قول الحافظ ابن القيم رحمهُ الله تعالى:" وَسَوَاء كَانَ الْمَعنى: وَمثل دَاعِي الَّذين كفرُوا كَمثل الَّذِي يَنْعِق بِمَا لَا يسمع من الدَّوَاب إِلَّا أصواتا مُجَرّدَة، أو كَانَ المعنى: وَمثل الَّذين

---

[1] التحرير والتنوير (٢١١-٢١٢).

كفرُوا حِين يُنَادَون كَمثل دَوَابِّ الَّذِي يَنْعِق بهَا فَلَا تسمع الا صَوت الدُّعَاء والنداء، فالقولان متلازمان. بل هما وَاحِد، وَإِن كَانَ التَّقْدِير الثَّانِي أقْرب إِلَى اللَّفْظ وأبلغ فِي المعنىٰ.

فعلىٰ التقديرين لم يحصل لَهُم مِن الدعوَة إلَا الصَّوتُ الحاصِلُ للأنعام. فَهَؤُلَاءِ لم يحصل لَهُم حَقِيقَةُ الانسانية الَّتِي يُمَيّز بهَا صَاحبُها عَن سَائِر الْحَيَوَان. والسمعُ يُرَاد بِهِ إدراك الصَّوْت، وَيُرَاد بِهِ فهم الْمَعْنى، وَيُرَاد بِهِ الْقبُول والإجابة"[1].

المطلب الثاني : هل هذا الْمَثَل من الأمثال الْمُركَّبة أو من الأمثال الْمُفرَّقَة ؟

اختلف أهل العلم في هذا الْمَثَل: هل هو قبيل الأمثال الْمُركَّبة أو من قبيل الأمثال الْمُفرَّقَة ؟. قال ابن القيم رحمه الله :" قيل: المعنىٰ: ومَثَلُ الذين كفروا كالبهائم التي لا تَفْقَه مما يقول الراعي أكثرَ مِن الصوت؛ فالراعي هو داعي الكفار، والكفار هم البهائمُ المنعوقُ بها.

قال سيبويه: المعنىٰ: ومَثَلُك يا محمد ومَثَلُ الذين كفروا كمَثَلِ النَّاعق والْمَنعُوق به.

وعلىٰ قوله فيكون المعنىٰ: ومَثَلُ الذين كفروا وداعيهم كَمَثَلِ الغنم والناعق بها.

ولك أن تجعل هذا من التشبيه الْمُركَّب، وأن تجعله من التشبيه الْمُفرَّق، فإن جَعَلتَه من الْمرُكَّب كان تشبيها للكفار في عدم فِقههم وانتفاعِهم بالغنم التي يَنعِق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئاً غيرَ الصوتِ الْمُجَرَّد هو الدعاءُ والنداءُ، وإن جَعَلتَه من التشبيه الْمُفرَّق فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودُعاءُ داعيهم إلىٰ الطريق

[1] مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٧٩).

والهدىٰ بمنزلة الذي يَنعِق بها، ودعاؤهم إلىٰ الهدىٰ بمنزلة النَّعق، وإدراكُهم مُجردَ الدعاء والنداء كإدراك البهائم مُجردَ صوت النَّاعق، والله أعلم"[١].

المطلب الثالث : معنى الْمَثَل باعتباره مُفَرَّقًا، وتفسير أجزائه: قوله تعالىٰ:﴿ وَمَثَلُ ﴾:

المراد بالعطف بالواو في قوله تعالىٰ:﴿ وَمَثَلُ ﴾: قال ابن عاشور:" وإنما عَطَفَه بالواو هنا ولم يَفْصِلْه كما فَصَل قَوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ لأنه أُريد هنا جَعْلُ هذه صِفةً مُستقلةً لهم في تَلَقِّي دعوةَ الإسلام، ولو لم يعطفه لما صحَّ ذلك"[٢]. قوله تعالىٰ: ﴿يَنْعِقُ﴾ النَّعقُ: الصِّيَاح، نَعَقَ الراعي بالغنم: إذا صاح بها وزَجَرَهَا[٣]. قوله تعالىٰ:﴿ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ : وهم البهائم، فهؤلاء مَثَلُهم كمَثَل إنسان يدعو بهائم لا تفهم إلا الصوت دعاءً ونداءً.

الفرق بين الدعاء والنداء: والدعاء قريبٌ من النداء، ولكن يمكن أن يُقال: إنَّ النداء يكون للبعيد، والدعاء للقريب. وقد يُقال: إنَّ الدعاء يكون بالاسم، والنداء يكون للعموم، فهناك بهائم يُسَمِّيها الإنسان باسمها، بحيث إذا دعاها بهذا الاسم أقبلت إليه، والنداء العام لجميع البهائم، وهي لا تُقبل على أساس أنها تعقل وتفهم وتهتدي ؛فربما يناديها لأجل أن ينحرها. فهؤلاء الكفار مَثَلُهم في كونهم يتبعون آبائهم بدون أن يَفْهَمُوا هذه الحال التي عليها آباؤهم كمَثَل هذا النَّاعق بالماشية التي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً[٤]. قوله تعالىٰ:﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ

---

[١] إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٤٠-١٤١).

[٢] التحرير والتنوير (٢/١١١).

[٣] انظر: مفاتيح الغيب (٥/١٨٩).

[٤] انظر: تفسير سورة البقرة لابن عثيمين (٢/٢٤٤).

﴾: " اعلم أنَّه تعالىٰ لَمَّا شَبَّهَهم بالبهائم زاد في تبكيتهم، فقال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ لأنهم صاروا بمنزلة الصُمِّ في أنَّ الذي سمعوه كأنهم لم يسمعوه، وبمنزلة البُكم في كونهم لم يستجيبوا لما دُعُوا إليه، وبمنزلة العُمي من حيث إنهم أعرضوا عن الدلائل فصاروا كأنهم لم يُشاهِدوها. قال النحويون: صُمٌّ أَيْ هُمْ صُمٌّ وهو رفع على الذم.

أمَّا قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فالْمُراد: العقل الاكتسابي؛ لأنَّ العقل المطبُوع كان حاصلاً لهم، فالعقل عقلان: مَطْبُوع ومَسْمُوع. وَلَمَّا كان طريق اكتساب العقل الْمُكْتَسَب هو الاستعانة بهذه القوىٰ الثلاثة فلما أعرضوا عنها فقدوا العقل الْمُكْتَسَب؛ ولهذا قيل: من فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلمًا"[١].

وقال أبو جعفر الطبري:" يعني تعالىٰ ذِكْرُه بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ هؤلاء الكفارَ الذين مَثلهم كمَثَل الذي يَنعق بما لا يسمع إلا دُعاءً ونداءً، ﴿صُمٌّ﴾ عن الحق فهم لا يسمعون، ﴿بُكْمٌ﴾ يعني: خُرسٌ عن قِيل الحقّ والصواب، والإقرار بما أمرهم الله أن يُقِرُّوا به، وتبيين ما أمرهم الله تعالىٰ ذِكْرُه أن يُبينوه من أمر محمد ﷺ للناس، فلا ينطقون به ولا يقولونه، ولا يبينونه للناس، ﴿عُمْيٌ﴾ عن الهدىٰ وطريق الحق فلا يبصرونه"[٢]. وبنحوه قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ، ثم قال: " ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يعلمون شيئاً ولا يفهمونه"[٣]. وقال ابن عاشور: " وقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أَخْبَارٌ لِمَحْذُوفٍ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْمُعَبرِ عنه في علمِ المعاني بمتابعة الاستعمال بعد أن أجرىٰ عليهم التمثيل.

---

[١] ما بين الأقواس من كلام الرَّازي في مفاتيح الغيب (١٩٠/٥) بتصرف.

[٢] جامع البيان في تأويل القرآن (٣/٣١٥-٣١٦).

[٣] تفسير القرآن العظيم (٣٤٩/١).

والأوصافُ إن رجعت للمشركين فهي تشبيه بليغٌ. وهو الظاهر، وإن رجعت إلى الأصنام الْمَفْهُومَةِ مِنْ (يَنْعِقُ) على أحد الاحتمالين الْمُتَقَدِّمَين فهي حقيقةٌ، وتكون شاهداً على صحةِ الوصفِ بالعدمِ[١] لمن لا يصح اتصافه بالْمَلَكةِ[٢] كقولك للحائط: هو أعمى، إلا أن يُجَابَ بأن الأصنام لَمَّا فَرَضَهَا الْمُشْرِكُونَ عُقَلَاءَ آلِهَةً وَأُرِيدَ إثبات انعدام الإحساس منهم عُبِّرَ عنها بهذه الأوصاف تَهَكُّمًا بالمشركين فقيل: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ كقول إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾

وقوله:﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تفريع، كَمَجِيءِ النتيجة بعد البرهان، فإن كان ذلك راجعاً للمشركين فالاستنتاج عقب الاستدلال ظاهِرٌ؛ لخفاءِ النتيجة في بادئ الرأي، أي: إن تأملتم وجدتموهم لا يعقلون؛ لأنهم كالأنعام والصُّم والبُكم إلخ، وإن كان راجعا للأصنام فالاستنتاج للتنبيه على غَبَاوَة المشركين الذين عبدوها. ومجيء الضمير لهم بضمير العقلاء تَهَكُّم بالمشركين؛ لأنهم جعلوا الأصنام في أعلى مراتب العقلاء كما تقدم"[٣]. وقال ابن عثيمين:" أي: فهم صُمٌّ عن سماع الحق؛ ولكن سماع غيره لا فائدة منه؛ فهو كالعدم؛ وهم بُكْم لا ينطقون بالحق؛ ونُطْقُهُم بغير الحق كالعدم؛ لعدم نفعه؛ وهم كذلك عُمي لا يُبصرون الحق؛ وإبصارهم غير الحق لا ينتفعون به.

---

[١] العدم: فقدان الشيء وذهابه، ويُرَاد به هنا: ارتفاع الْمَلَكة، انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٢٤٨)، الكُلِّيات (ص ٦٥٥)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (١٠٨٦/٣).

[٢] الْمَلَكَة: كل معنى وجودي أَمْكَنَ أن يكون ثابتا للشيء، إما بحق جِنْسِه كالبصر للإنسان، أوبحق نوعه ككتابة زيد، أو بحق شخصه كاللحية للرَّجُل ، انظر: التعريفات،ص٢٢٩، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (١٠٨٦/٣).

[٣] التحرير والتنوير(٢١٣/٢).

قوله تعالىٰ: ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي: لكونهم صُمًّا بُكْماً عُمْياً فهم لا يعقلون عقلَ رشد، وإن كان عندهم عقلُ إدراك ـ؛ فلعدم انتفاعهم بعقولهم نَفَىٰ الله عنهم العقل؛ ورتَّبَ الله انتفاءَ العقل عنهم علىٰ كونهم صُمًّاً بُكماً عُمياً؛ لأنَّ هذه الحواس وسيلة العقل والإدراك"[١]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ:" أصل السَّماع الذي أمر الله به هو سماع ما جاء به الرسول ﷺ ؛ سماع فِقْه وقَبول؛ ولهذا انقسم الناس فيه أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ: صِنفٌ مُعْرِضٌ ممتنعٌ عن سماعه، وصِنفٌ سَمِعَ الصوتَ ولم يفقه المعنىٰ، وصِنفٌ فَقِهَهُ ولكنه لم يَقْبَلْه، والرابع الذي سمعه سماع فِقْه وقَبُول. فالأول كالذين قال فيهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ . و الصنف الثاني من سَمِعَ الصوت بذلك لكن لم يفقه المعنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ "[٢].

---

[١] تفسير سورة البقرة لابن عثيمين(٢/٢٤٥).

[٢] مجموع الفتاوىٰ (١٦/٨).

خاتمة

ضرب الله تعالى في سورة البقرة ثلاثة أمثلة لأحوال المنافقين والكفار ، المثل الأول يصور حال المنافقين بحال من أوقد نارا فأضاءت ما حوله لكنها سرعان ما خبت ، كحال المنافق الذي أسلم لكنه سرعان ما عاد لكفره ، ولما يثبت إيمانه ويستقر في قلبه بل عاد منتكسا لظلمات الكفار . والمثل الثاني : يبرز حال المنافق الذي لم ينتفع بنور القرآن ولم يرتوِ من منهله العذب ولم يطمئن قلبه وينشرح صدره بآيات الله كحال من لم يكن حظه من المطر سوى دوي الرعد وظلمة السحب الملبدة المثقلة بالماء وما يصاحبها من بروق تخطف بالأبصار، ثم يضرب الله المثل للكافر بحال الراعي الذي ينادي على غنمه أو يسلي نفسه بمخاطبتها وهي لا تعي ما يقول ، كذلك الكافر لا يعي ولا يعقل نداء الحق ولا يتدبر كلام الله فالكافر في ضلاله وغفلته وإعراضه كالغنم التي لا تعرف إلا الطعام والشراب ..

بلاغة القرآن الكريم وكمال حجته باستيعابه لسائر ضروب البيان والتي من أجلاها بيانا ضرب الأمثال ، التي تقِّرب المعاني للأفهام وترسخها في الأذهان ، حين تتمثل في صورٍ ومشاهد محسوسة وملموسة وواقعية .

في ضرب مثلين لأحوال المنافقين تنويه على خطر النفاق وخبث المنافقين وأساليبهم الملتوية ، والقرآن الكريم حين يتحدث عن النفاق فإنه يحذر المؤمنين من الوقوع فيه ومن الخديعة بدهاء المنافقين وتلونهم، كذلك في ضرب المثلين تحذير وتنفير للمنافقين من هذا المسلك الذي لا يفضي إلى خير بل إلى شرٍّ عظيم ، كذلك ضرب المثل بحال الكفار فيه ذمٌّ لهم وتنفيرٌ من غفلتهم وإعراضهم .

الحاجة لدراسة علمية لأمثال القرآن الكريم فهي بحر زاخر وكنز عظيم من المعاني واللطائف.

فهرس المصادر

١. اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ابن قيِّم الجوزية، تحقيق: بشير عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السُّعُود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون تاريخ.

٣. الاستيعاب، يوسف بن عبد الله بن عبد البَر القرطبي، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الجيل - بيروت، ، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٤. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفِكر، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٦. إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، ابن قيِّم الجوزية، تحقيق: محمد عبدالسلام ابراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧. الأعلام، خير الدين الزِرِكْلِي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.

٨. البحر المحيط، محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٩. البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير، تحقيق: عبد الرحمن اللادقي، ومحمد غازي بيضون، دار المعرفة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ.

١٠. تاريخ الإسلام، أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، ط. دار الغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

١١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس، ١٩٨٤م.

١٢. تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرَّازي، تحقيق: أسعد الطَّيِّب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

١٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي السلامة، دار طيبة، الطبعة الأولى،

١٤١٨هـ.
١٤. تفسير القرآن الكريم (الفاتحة– البقرة)، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى، صفر عام ١٤٢٣هـ.
١٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، عبدالرحمن بن ناصر السَّعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن مُعلَّا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.
١٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر.
١٧. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٢٣هـ.
١٨. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنَّشر، بيروت، طبع عام ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
١٩. ديوان ذي الرُّمَّة، قدَّم له وشرحه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.
٢٠. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض، السعودية، ١٤١٢هـ– ١٩٩٢م.
٢١. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية– البابي الحلبي.
٢٢. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر
٢٣. سنن الدرامي، عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧
٢٤. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

٢٥. صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.

٢٦. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢٧. طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق : سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م.

٢٨. غريب القرآن، عبدالله بن مسلم بن قُتَيبة الدَّينوري، تحقيق: سعيد اللّحام.

٢٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: يوسف الغوش، دار المؤيد، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٣١. فوات الوفيات، محمد شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر.

٣٢. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، ضبط: يوسف الحمادي، مكتبة مصر، بدون تاريخ.

٣٣. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد الثَّعلَبي، تحقيق: محمد بن عاشور، دار إحياء التُراث العربي، بيروت–لبنان.

٣٤. اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٥. مجموع الفتاوي، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرَّاني أبو العباس، جمعه: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة.

٣٦. مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، ابن قيِّم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٧. مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٣٨. معالم التنزيل، محيي السنة البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر بالاشتراك، دار طيبة،

الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ

٣٩. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق ابراهيم بن السَّري الزَّجَّاج، تحقيق: عبدالجليل بن عبده شلبي، دار الكتب- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٠. مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرَّازي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٤١. مفتاح دار السعادة ومنشور دار العلم والإرادة، ابن قيِّم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٢. الوابل الصَيِّب من الكَلِم الطَّيِّب، ابن قيِّم الجوزية، تحقيق: سيد ابراهيم، دار الحديث، القاهرة.